عودة الحجاب

القسم الأول
معركة الحجاب والسفور

جمع وترتيب

محمد أحمد إسماعيل المقدم

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

دار طيبة للنشر والتوزيع

الطَّبْعَةُ السَّعُودِيَّةُ العَاشِرَةُ
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

دار طيبة للنشر والتوزيع

الريـاض - السـويدي - ش. السـويدي العام - غـرب النفق
ص. ب ٧٦١٢ الرمـز البريـدي ١١٤٧٢ هـاتف ٤٢٥٣٧٣٧ فـاكس ٤٢٥٨٢٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله الذي أخمد ذكر الطواغيت فصار بعزِّ التوحيد والإسلام مطموساً ، وأذَلَّ بقهره منهم أعناقاً ورؤوساً ، وصرف عن أهل طاعته بلُطْفِهِ وإسعاده أذىً وبوساً ، ورفع كيد شياطين الإنس والجن عن قلوب أهل الإيمان ، فأصبح عنها محبوساً .

وأشهد أن لاإله إلا الله ، وحده لاشريك له ، شهادة مخلص في معتقده ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وصفيه وخليله ، صلِّ اللهم وسلِّمْ عليه ، وعلى آله وصحبه ، وعلى سائر التابعين مقصده ، الصابرين من البلاء على أشده .

أما بعد :

فما أشد حاجتنا إلى إعادة النظر في تقويم الرجال بعد رحلة الشقاء التي تركت قلوبنا مجرحة ، وأيدينا مرتعدة ، وسيوفنا ملثمة ، تلك الرحلة التي قام فيها على أمرنا فريق التحف الإسلام ، وتبطَّن الكفر ، حمل بين فكيه لساناً مسلماً ، وبين جنبيه قلباً كافراً مظلماً ، حرص كل الحرص على أن يطفيء نور الإسلام ، ويهدم عز المسلمين ، فلم يجد أعون له على هذا الغرض السيء من أن يقدم لنا الكفر والفسوق والعصيان على « طبق » إسلامي ، ويتولى تزيينَه لنا سَدَنَتُه من الزعماء ، وربائبه من المفكرين ، فكانت النتيجة ركاماً ضحلاً تافهاً مظلماً من المباديء التي أخذناها لنستر بها عُرْيَنا ، فعرينا ! ، والمناهج التي اقتبسناها لننسج بها آمالنا فنسجنا بها أكفاننا !

(إن كثيراً ممن نعتبرهم اليوم دعائم النهضة الحديثة ، لم يصبحوا كذلك في أوهام الناس إلا بسبب الدعايات المغرضة ، التي أرادت أن تضعهم في هذه المنزلة ، لتحقق بذلك أغراضها في نشر مذاهبهم والتمكين لآرائهم ، ولأن كثيراً من الآراء المنحرفة التي لم تكن تستطيع أن تجد طريقها إلى الفكر الإسلامي وإلى مجتمعاته ، قد أصبح قبولها ممكناً بِنِسْبَتِها إلى هذه الزعامات وإلى هؤلاء الأئمة ، الذين لايتطرق إلى الناس شك في إخلاصهم وعلمهم ، والواقع أن كثيراً من هؤلاء الرجال قد أحيطوا بالأسباب التي تبني لهم مجداً وذكراً بين الناس ، ولم يكن الغرض من ذلك خدمتَهم ولكن الغرض منه كان ولا يزال هو خدمة المذاهب والآراء التي نادوا بها ، والتي وافقت أهداف الاستعمار ومصالحه .

وخطة الاستعمار واليهودية العالمية في ذلك كانت تقوم ــ ولا تزال ــ على السيطرة على أجهزة النشر التي نسميها الآن « الإعلام » وإلقاء الأضواء من طريقها على كُتَّابٍ ومفكرين من نوع خاص ، يُبْنَوْنَ ، وَيُنَشَّئون بالطريقة التي يُبنى بها نجوم التمثيل والرقص والغناء ، بالمداومة على الإعلان عنهم ، والإشادة بهم ، وإسباغ الألقاب عليهم ، ونشر أخبارهم وصُورهم ، وذلك في الوقت الذي يهمل فيه الكُتَّابُ والمفكرون الذين يصورون وجهات النظر المعارضة ، أو تُشَوَّهُ آراؤهم وتُسفَّه ، ويُشَهَّر بهم ، ثم هي تقوم على تكرار آرائهم آناً بعد آن ، لايَمَلُّون من التكرار ، لأنهم يعلمون أنهم يخاطبون في كل مرة جيلاً جديداً ، أو هم يخاطبون الجيل نفسه ، فيتعهدون بالسقي البذورَ التي ألقوها من قبل .

ونحن حين ندعو إلى إعادة النظر في تقويم الرجال ، لانريد أن ننقص من قدر أحد ، ولكننا لانريد أن تقوم في مجتمعنا أصنام جديدة معبودة لأناسٍ يزعم الزاعمون أنهم معصومون من كل خطأ ، وأن أعمالهم كلَّها حسنات لاتقبل القدح والنقد ، حتى إن المخدوع بهم والمتعصب لهم ، والمروج لآرائهم ليهيج ويموج إذا وَصَفَ أحدُ الناس إماماً من أئمتهم بالخطأ في رأي من آرائه ، في الوقت الذي لايهيجون

فيه ، ولا يموجون حين يوصف أصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم بما لايقبلون أن يوصف به زعماؤهم « المعصومون » ! ، ويحتمون بحرية الرأي في كل مايخالفون به إجماع المسلمين ، ويأبَوْن على مخالفيهم في الرأي هذه الحرية ، يخطِّئون كبار المجتهدين من أئمة المسلمين ويجرِّحونهم بالظنون والأوهام ، ويثورون لتخطئة ساداتهم أو مواجهتهم بالحقائق الدامغة)اهـ[1] .

• ويرهق كثير من الكتاب عقولهم في تحديد هوية أولئك المتآمرين ، وهذا لامبرر له ، إذ يكفينا أنهم (كارهون لما أنزل الله) ، فلا نبالي حينئذ أن يكونوا حقاً صنائع اليهودية أو الصليبية أو الماسونية أو الشيوعية ، لأن الكفر مهما تعددت ألوانه ، فهو كفر ، ينبغي محاربته واستئصاله ، ودين الشيطان لايعرف الجنسية .

• وهؤلاء الذين مايزالون يتعامَوْن عن رؤية الواقع الصارخ الذي يؤكد أن هناك مؤامرة وتدبيراً خفياً يستهدف القضاء على الإسلام ــ غافلون ، مخدوعون بأصحاب القفازات الحريرية الذين هم « من جلدتنا ، ويتكلمون بألسنتنا » .

إن من الغباء أن نعمى عن أعداء ديننا ، بل ونتخذهم أولياء من دون المؤمنين ، وهم ــ في ذات الوقت ــ لايدخرون وسعاً في تحطيم مقومات الأمة ، وتنفيذ مخططات أعدائها :

بأبي وأمي ضاعت الأحلام ... أم ضاعت الأذهان والأفهام
من حاد عن دين النبي محمد ... أَلَهُ بأمر المسلمين قيام
إن لاتكن أسيافهم مشهورة ... فينا فتلك سيوفهم أقلام[2]

• وإذا كنا بصدد الحديث عن المؤامرة على المرأة المسلمة كجزء من مشروع استعماري شامل لتغيير وجه الحياة في مصر ، واقتلاع المجتمع الإسلامي من

(١) (الإسلام والحضارة الغربية) للدكتور محمد محمد حسين رحمه الله ، ص (٤٧ ــ ٤٩) بتصرف .
(٢) (غذاء الألباب بشرح منظومة الآداب) لمحمد بن أحمد السفاريني (١٤/٢) .

جذوره ، فلا ريب يستوقفنا مواقف رضعاء ألبان الغرب والشرق الذين غُسِلَتْ أدمغتهم في دهاليز الكفر ، وترعرعوا في كنف الإلحاد ، وعادوا إلى بلادنا لترتفع على أكتافهم أعمدة الهيكل العلماني ، من هنا كان لابد من وقفات معهم تبين بالوثائق والأدلة موقفهم من الإسلام وعليه موقف الإسلام منهم .

ولئن كان هناك رجال وقفوا حياتهم على هدم الإسلام ، فلابد أن يكون مصيرهم الهدم ، ومن عجيب أمر بعض السُّذَّجِ أنهم تأخذهم بأولئك الهدَّامين رأفةٌ في دين الله ، وينكرون على من يكشف كيدهم قائلين : « وما يدريك لعلهم تابوا !

ففلان حج أو اعتمر ، وفلان بنى مسجداً ، وفلان أعلن أنه يستمع إلى إذاعة القرآن الكريم » !

نقول : هذا فهم قاصر لمعنى التوبة في حق هؤلاء ، فإن من شرط توبتهم أن يتوبوا عن مظالمهم ، ويقلعوا عن غيهم ، ويتبرأوا مما بدر منهم في حق دين الحق ، ويندموا على مابارزوا به الإسلام والمسلمين ، ويعلنوا ذلك على الملأ .

وقد يقول قائل : « لعلهم تابوا ، ولكن حيل بينهم وبين إعلان توبتهم » .

نقول : هذا محتمل ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق** ﴾ البروج (١٠) ، وقال ﷺ : (... وإنما الأعمال بالخواتيم)[٣] ، والخواتيم مُغَيَّبة ، فلهذا كان من أصول أهل السنة عدمُ الحكم لمُعَيَّن بالجنة ، ولا الحكم على معينٍ بالنار إلا بنص من الوحي ، ولكن هذا لم يمنعهم من أن يُجْروا أحكام الإسلام على من كان يظهر الإسلام في الدنيا ، وأحكام الكفر على من أظهره في الدنيا ، وانشرح به صدره ، ولم يمنعهم ذلك أيضاً من أن يُحَذِّروا من ضلال المُضِلِّين ، وتلبيس الملحدين مع علمهم بأن الخواتيم مغيبة ، إذ إن ذلك من واجبات الديانة .

---

(٣) قطعة من حديث رواه الشيخان ــ انظر « جامع الأصول » (١٠/٢٢٠ ــ ٢٢١) .

وحينما نعرض الوثائق التاريخية التي تنطق بإدانة أولئك المتمسلمين الذين رفعوا عقيرتهم بالصدِّ عن سبيل الله ، فإن مقصودنا الأول هو تحذير المسلمين من ضلالهم ، أما القطع بخاتمة شخص معين ، أو الحكم عليه بجنة أو نار ، فهذا لايملكه إلا العزيز الغفار .

ومن هنا يتضح لك الجواب عما رمانا به أحد « عُبَّاد الصليب » ، وقد أخذته الحمية وتدفقت من قلبه الغيرة على شخصيات تناولها البحث بالنقد ، فكتب في (الأهرام) تحت عنوان : « تشويه العظماء » :

(إن محاولات هؤلاء المتخلفين وهجماتهم لم تقتصر على أعلامنا الأحياء بل امتدت لتشمل رُوَّادنا الراحلين ، أي أن حقد المتخلفين لم يقف احتراماً للموت ، بل استطاع أن يتجاوز حواجزه حتى ينفث سمومه هناك حيث رحاب الله ، وانهالت عليهم تهم الإلحاد والكفر والزندقة ، وكأن هؤلاء المتخلفين قد ورثوا بابوات روما في العصور الوسطى المظلمة في منح صكوك الغفران لمن يحبونهم ، وحجبها عمن يحقدون عليهم !! (قلت : أنت أدرى !!) .

وقد آن الأوان ليعلم هؤلاء المتخلفون الجهلاء أن السلطة الوحيدة التي تملك حق اتهام الآخرين على وجه هذه الأرض هي السلطة القضائية ، وذلك بناءً على قرائن وشواهد محددة ، أما أن يتخيل جاهل متخلف أن في قدرته تحديدَ الذاهبين إلى الجنة ، والساقطين في الجحيم ، فإنه بهذا يتدخل في إرادة الله سبحانه وتعالى)اهـ .

ولا أجد جواباً عليه إلا أن أنقل قوله :

(ولكي ندرك خطورة مايجري الآن ، فلنا أن نتخيل حياتنا الثقافية بدون طابور رُوَّادِنا العظامِ ابتداءً برفاعة الطهطاوي ، وجمال الدين الأفغاني ، ومحمد عبده ، وقاسم أمين ، وهدى شعراوي ، ولطفي السيد ، وطـه حسين ، ... وسلامة موسى ، ومحمد مندور ، وانتهاءً بتوفيق الحكيم ، ونجيب محفوظ ، وزكي نجيب محمود ،

ولويس عوض ، وأمينة السعيد ، وعبد الرحمن الشرقاوي ، وحسين فوزي ، ويوسف إدريس ، وأحمد بهاء الدين ، وغيرهم ممن حملوا شعلة الثقافة المستنيرة عبر مايزيد على قرن ونصف من الزمان) اهـ .

ثم أتساءل : ماهو الذي يجمعك ياعابد الصلبان مع هؤلاء الرواد « العظام » سوى وحدة الهدف ؟

إن وثائق الإدانة لهؤلاء الرواد العظام (!) تتزاحم أمامي الآن ، كل منها يستبق ليحتل السطور القليلة في هذه المقدمة ، ولكني أرجيء أغلبها ، وأتخيَّر وثيقة واحدة ، وهي عبارة مظلمة نطق بها يوماً أحد رُوَّادك العظام ، وهو المَدْعُوُّ (أحمد بهاء الدين) قال :

(لابد من مواجهة الدعوات الإسلامية في أيامنا مواجهة شجاعة بعيداً عن اللف والدوران ، وإن الإسلام كغيره من الأديان يتضمن قيماً خلقية يمكن أن تستمد كنوع من وازع الضمير ، أما ماجاء فيه من أحكام وتشريعات دنيوية فقد كانت من قبيل ضرب المثل ، ومن باب تنظيم حياة نزلت في مجتمع بدائي إلى حدٍّ كبير ، وَمِنْ ثَمَّ فهي لاتلزم عصرنا ومجتمعنا) اهـ[٤] .

إن الإسلام دين الله الحق لايهزم أبداً في معركة شريفة ، ولا يهاب الصراع مع الباطل أيًّا كان ، إذ :

(ليس الخطر الذي يهدد المجتمع الإسلامي ناشئاً عن هذا الصراع ، فالصراع بين الأصيل والدخيل سنة من سنن الله العليم الحكيم ، يضرب فيها الحق والباطل ﴿ **فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض** ﴾ الرعد آية (١٧)

ليس هذا الصراع إذن مصدر خطر ، بل إنه ربما يدعو إلى التفاؤل والاطمئنان ، ولكن مصدر الخطر وعلامته هي أن يزول هذا الصراع ، وأن يفقد الناس الإحساس

(٤) انظر : (الصحافة والأقلام المسمومة) للأستاذ أنور الجندي ـــ ص (٢١٤) .

بالفرق بين ماهو إسلامي وبين ماهو غربي ، إن فقدان هذا الإحساس هو النذير بالخطر ، لأنه يعني فقدان الإحساس بالذات ، فالجماعات البشرية إنما تدرك ذاتها من طريقين معاً : من طريق وحدتها التي تكونها المفاهيم والتقاليد المشتركة ، ومن طريق مخالفتها للآخرين اليت تنشأ عن المغايرة والمفارقة ، ولذلك كان الخطر الذي يتهدد هذه الوحدة يأتيها من طريقين : الشُعوبية التي تفتتها ، والعالَمية التي تُمَيِّعُها ، فزوال الإحساس بالمغايرة والمفارقة هو هدم لأحد الركنين اللذين تقوم عليهما الشخصية ، وهذا هو ما لا يزيد أن يكون ، نريد أن يظل هذا التمييز بين ما هو إسلامي وبين ما هو طارىء مستجلب ــ شرقياً كان أو غربياً ــ حيًّا الأجيال الصاعدة والتالية ، وهي أمانة تلقاها جيلنا عمن قبله ، ولابد أن يحملها إلى من يجيء بعده)[٥] .

وأخيراً ، لا يفوتني في هذا المقام أن أتقدم بالشكر الجزيل لكل من أعان على نشر هذا الكتاب ، والحمد لله أولاً وآخيراً ، وظاهراً وباطناً ، وصلى الله على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الإسكندرية في الجمعة الثالث عشر من شهر الله المحرم ١٤٠٦هـ .

(٥) (الإسلام والحضارة الغربية) ص(٥٩ ــ ٦٠) .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الأولى

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ (آل عمران : ١٠٢) .

﴿ ياأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ (النساء : ١) .

﴿ ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً ، يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾ (الأحزاب : ٧٠) .

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ ، وشرَّ الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار . ـ

بين يديك ــ أيها القارىء ــ مواقف تاريخية تبين لك فصول (المعركة) التي نشبت في أواخر القرن الماضي واستمرت أمداً بعيداً بين (الحجاب) وبين (السفور) ، بين (العفة والفضيلة) وبين (التهتك والرذيلة) .

وقد تركز البحث حول تاريخ هذه المعركة في (مصر) ، وإن كان من حقه أن يستوفي تفاصيل المعركة في سائر البقاع الإسلامية ، ولهذا الأمر مبررات :

- منها عزة المصادر المَرْضيَّة التي يمكن من خلالها استنباط المقصود .

- ومنها أن مصر لما لها من مركز حساس ، ولما تتمتع به من صدارة تؤهلها للقيادة الفكرية ـــ يقر بها الجميع ـــ كانت الأسوة والقدوة في شتى المجالات بعامة ، وفي مجال (المرأة) بخاصة ، الأمر الذي جعل من فصول المعركة خارجها صورة مطابقة لما حدث فيها ، ولا ينسى التاريخ وصية الملك « عبد العزيز » لأبنائه بأن يقيسوا حال الأمة العربية قوة وضعفاً بحال مصر فهي ميزان قوة العرب والمسلمين(٦) .

ولا ينسى التاريخ أن دفاع المسلمين المصريين ضد الإنكليز وعملائهم من دعاة مايسمى بـ (تحرير المرأة) كان انطلاقاً من وجهة نظر الشاعر « أحمد محرم » التي يلخصها قوله مشيراً إلى « مصر » :

احفظوها إن مصر إن تَضِعْ   ضاع في الدنيا تراثُ المسلمين

ومن هنا لم يكن عفواً أن يبدأ المبشرون الصليبيون بمصر ، قلعة الإسلام الصامدة ، ومركز ثقله ، ولم يكن عفواً أن يكون قادة الغزو الصليبي الجديد لمصر من القساوسة المعروفين بكيدهم للإسلام والمسلمين أمثال « دنلوب » هذا الكاهن الذي (خلع عنه ثوب الكهنوت ، ودخل في خدمة الحكومة يدير مدارسها في خلال ربع قرن فكان يناهض القرآن مناهضة سرية متواصلة)(٧) .

---

(٦) « مدافع آية الله » لمحمد حسنين هيكل (ص٢٥٤)، وانظر ص (١٧ ، ٢٥٢) من نفس المصدر ، وانظر أيضاً : « تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين » للشيخ عبد الله الشرقاوي المطبوع بهامش « فتوح الشام للواقدي ص (١١ ، ١٧ ـــ ٢١) .

(٧) « المخاطر التي تواجه الشباب المسلم » د. « مصطفى حلمي » ص (٢٨) نقلا عن (الإسلام وآسيا أمام المطامع الأوربية) تأليف أوجين يونج ص(١٥٧) .

وأمثال « كرومر » الذي تخرج هو ودنلوب من أكبر المدارس اللاهوتية في أوربا[8] وغيرهم من النصارى الذين رحلوا إلى مصر ليتخذوها قاعدة انطلاق، وليجندوا زملاءهم من المنافقين والمنافقات الذين أظهروا أسماء المسلمين، وأبطنوا قلوب الذئاب ﴿ **يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون** ﴾ (البقرة : ٩)، فمن هنا جاز تجريحهم، وكشف عوارهم، تحذيراً منهم ونصيحة للمسلمين، كما بَيَّن ذلك علماءُ « الجرح والتعديل » ﴿ **ولا عدوان إلا على الظالمين** ﴾ (البقرة : ١٩٣)، ولله دَرُّ القائل :

من الدين كشف الستر عن كل كاذب ... وعن كل بدعي أتى بالعجائب
ولـولا رجـال مؤمنـون لَهُـدِّمَتْ ... صوامع دين الله من كل جانب

هذا وقد حرصت أن أعزو ــ مااستطعت ــ كل قول إلى قائله، لأخرج من تبعته، وقصرت جهدي على الجمع والترتيب إلا فيما لابد منه من التوضيح والتهذيب .

وهذا الجزء هو الأول من مجموعة (عودة الحجاب) يتلوها إن شاء الله تعالى الأجزاء :

الثاني، وموضوعه : المرأة بين تكريم الإسلام، وإهانة الجاهلية .

والثالث، ويتضمن : مقدمة في ذم التبرج والحث على الحجاب ــ شروط زي المرأة المسلمة الاختلاط وأضراره ــ معاني الحجاب وتاريخه ــ بدعة الدعوة إلى السفور ــ السفور والغيرة ــ السفور والحياء ــ أدلة القرآن الكريم والسنة النبوية على وجوب انتقاب المرأة، وسرد المذاهب في ذلك، ومناقشة أدلة المخالفين .

والرابع، ويتضمن : ثلاث قضايا جامعة : تعليم المرأة، وعمل المرأة، وأحكام القرار في البيوت ــ يسر الله إتمامها .

---

(٨) « المرأة ومكانتها في الإسلام » لأحمد عبد العزيز الحصين ص (٢٠٧) .

هذا عدا مسائل أخرى تفرعت من أبواب هذا البحث تعم الحاجة إلى تبيينها وإن بعدت عن المقصود الأصلي منه ، ولكن الشيء قد يذكر بالشيء ، وتصح الإضافة بأدنى مشابهة في الزي والفيء ، وكلها نبضات قد يعوزها الترتيب والتنسيق ، ولكن أرجو ألا يعوزها الصدق والتوفيق ، والله سبحانه وتعالى أسأل أن يجعل سعيي هذا مشكوراً وجهدي في هذا الجمع والترتيب — وإن كنت مقلاً — مبروراً ، ويتوب علينا وعلى سائر العصاة والمذنبين فيما فرط منا من السيئات والذنوب ، توبة لايصيبنا بعدها نصب ، ولا يمسنا فيها لغوب ، وحسبي بعد ذلك أن أدعو الله ألا يصرف من نيتي شيئاً إلى غيره ، وأن يوفقني كي لاأبتغي بما سطرته إلا وجه الله والدار الآخرة ، فإن من كان همه هناك كان في شغل شاغل عن مدح المادحين ، وقدح القادحين ﴿ **إنْ أريدُ إلا الإصلاحَ مااستطعتُ وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلتُ ، وإليه أنيب** ﴾ (هود : ٨٨) والحمد لله رب العالمين .

معركة الحجاب والسفور

(قضية المرأة)

بين المنهزمين والمتآمرين[٩]

إن جملة الأحكام التي يطلق عليها عنوان (الحجاب) هي في الحقيقة مشتملة على أهم أجزاء النظام الاجتماعي في الإسلام ، فإذا وضعت هذه الأحكام موضعها الصحيح في النظام الإسلامي بكامله ، ثم تأملها أحد فيه أثارة من البصيرة الفطرية السليمة ، لم يلبث أن يعترف بأنها الصورة الوحيدة الممكنة التي تضمن القصد والاعتدال في الحياة الاجتماعية ، وأن هذه الأحكام لو عُرضت على العالم منفذة في الحياة العملية بروحها الحقيقية الصحيحة ، لهرولت الدنيا المنكوبة إلى هذا النبع الصافي ، تلتمس فيه الدواء لأدوائها الاجتماعية المتفشية بدل أن تنفر منه ، أو تطعن عليه .

في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ، ومطلع القرن التاسع عشر فوجئت الممالك الإسلامية بطوفان من الاستعمار الغربي ، وبينما المسلمون في هجود الكرى ، لم يستيقظوا بعد كل اليقظة ، جعل هذا السيل يمتد من قطر إلى قطر ، حتى شرَّق العالم الإسلامي ، وغرَّب ، وما أن انتصف القرن التاسع عشر حتى غدت معظم الأمم المسلمة عبيداً للغرب الأوربي وخولاً له ، والتي لم تدخل منها في عبوديته ، لم تسلم من الخضوع لسلطانه ورهبة بأسه وسطوته .

ولما بلغ هذا الانقلاب تمامه بدأت في المسلمين آثار اليقظة والحركة ، فلما فتحوا أعينهم على الحال التي قد صاروا إليها ، فشلت ريحهم ، وزال عنهم بغتة ذلك

(٩) مستفاد بتصرف من كتاب « الحجاب » للمودودي رحمه الله ص(٣٧ ــ ٤٧) طبع مؤسسة الرسالة .

الفخار والاعتزاز الذي طالما تأصل فيهم لبقائهم في عزِّ الغلبة ومجد السيادة قروناً متوالية، فعادوا يفكرون في أنفسهم، كالسكران يُفيقُهُ توالى الضربات من عدو شديد، ويبحثون عن الأسباب التي هبطت بهم، وغَلَّبت الإفرنج عليهم، غير أن عقولهم لم تكن ثابتْ بعد إلى رشدها، إذ كان السكر لاريب قد ذهب عنهم، ولكن ميزان الفكر كان لايزال مختلاً فيهم:

فبجانبٍ كان يلح بهم شعور بالذلة والهوان، ويؤزهم أزًّا على تبديل ما هم فيه من الأحوال، وبجانب آخر يغلبهم من حب الراحة وإيثار الدعة والارتخاء مايحملهم على توخي أقرب الطرق وأسهلها لتبديل تلك الحالة، وقد خارت فيهم من جهة ثالثة قوى الفكر والعقل، وصدئت ملكات الفهم والذكاء بطول تعطلها عن العمل، زد على ذلك كله ماأخذ بمجامع نفوسهم من الدهشة والروعة التي تعتري بالطبع كل أمة منهزمة مستعبدة، وتغلغلت هذه العوامل في محبي الإصلاح من المسلمين، وأوقعتهم في كثير من الضلالات العقلية والعملية، فأكثرهم ماكادوا يفطنون للأسباب الحقيقية في ارتقاء أوربة وانحطاطهم، وأما الذين فهموها منهم وأدركوها، فأعوزهم من بُعْدِ الهمة والعزيمة مايتشجعون به على اختيار الطريق الوعرة للرقي والتقدم، وكان من وراء ذلك كله الروعة والدهشة التي تعتري الطائفتين على السواء، فلما مضوا بهذه العقلية المريضة الزائفة يريدون الإصلاح، لم يروا أضمن للرقي ولا أدنى للوصول إليه من أن يحاكوا في حياتهم اليومية كل مظاهر التمدن والحضارة الغربية، فيعودوا كالمرآة الصافية، يُرى فيها خيال الروضة والأزهار والرياحين، وليس فيها من حقيقة هذه المناظر من شيء.

« لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ من كان قبلكم »[١٠] :

وهذه هي الفترة الانهزامية التي غدت الأمم الإسلامية فيها تحاكي أمم الغرب

---

(١٠) صَدْرُ حديث رواه الشيخان وغيرهما عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ وتتمته : =

في الزي واللباس ، وسائر المظاهر الاجتماعية ، في آداب المجالس وأطوار الحياة ، حتى في الحركة والمشي والتكلم والنطق ، لقد حاولوا تشكيل المجتمع المسلم على الصيغة الغربية ، وقبلوا الإلحاد والدهرية والمادية في نشوة التجدد ، بدون حيطة أو شعور بالعواقب ، وعَدُّوا من لوازم التنور الفكري إيمان المرء بكل مابلغه من قِبَل الغرب من فكرة ناضجة أو فجة ، والإفاضة فيه في مجالسه ، ورحبوا بالخمر والقمار واليانصيب والتهتك والرقص ، وما إلى ذلك من ثمرات الحضارة الغربية ، ثم سلّموا بجميع معتقدات الغرب وأعماله في الأخلاق والآداب والاجتماع والاقتصاد والسياسة والقانون ، حتى في العقائد الإيمانية والعبادات ، سلّموا بكل ذلك من غير فهم أو شعور ، ومن غير نقد أو تجريح ، كأنه تنزيل من السماء ليس لهم قِبَلَهُ إلا أن يقولوا : (آمنا) ، وأصبح المسلمون أنفسهم يستحيون من كل مانظر إليه أعداء الإسلام بالتحقير والتعيير ، ولو كان هذا الشيء من الأمور الثابتة في الشرع الحنيف ، وطفقوا يحاولون أن يمحوا تلك السُّبَّةَ عن أنفسهم :

ـ اعترض الغربيون على ماعندهم من أحكام الجهاد ، فقال هؤلاء المنهزمون : (مالنا وللجهاد ياسادة ؟ إنا نعوذ بالله من هذه الهمجية) ...

ـ اعترضوا على الرق ، فقال هؤلاء : (إنما هو حرام عندنا أصلاً)[١١] .

ـ وأطالوا لسان القدح في تعدد الزوجات ، فجاء المنهزمون ينسخون بضلالهم وجهلهم آيات القرآن ، ويحرفون الكلم عن مواضعه[١٢] .

ـ ثم قال أولئك الغربيون : (لابد من مساواة الرجل والمرأة في جميع نواحي

= (... شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جُحْرَ ضَبٍّ لتبعتموهم ، قلنا : يارسول الله ! اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟) .

(١١) انظر « أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن » للشنقيطي (٣/٣٨٦ ــ ٣٨٩) .

(١٢) انظر المرجع السابق (٣/٣٧٧ ــ ٣٨٠) .

الحياة) ، فوافقهم المنهزمون ، وقالوا : (وهذا هو الذي ينادي به ديننا ، ويدعو إليه) .

ـــ وطعن القوم في أحكام الزواج والطلاق في الإسلام ، فقامت طائفة من المنهزمين تعالجها بالإصلاح والتعديل .

ـــ ولما عابوا الإسلام بأنه عدو لما يسمى (الفنون الجميلة) ، استدرك هؤلاء قائلين : (كلا ، بل مازال الإسلام مذ كان ، يحتضن هذه الفنون ويحض عليها ، ويشرف على الرقص والموسيقى والتصوير والغناء ونحت التماثيل ...)

ففي سبيل دفع تهم الجمود التي يلصقها الغربيون بالشريعة رأينا هؤلاء المنهزمين ينجرفون إلى أقصى الطرف المناقض في بيان ماتنطوي عليه الشريعة من مرونة التطبيق ، حتى يبلغوا بهذه المرونة حدّ الميوعة ، وانعدام الذات والمقومات ، تلك الميوعة التي تجعلها صالحة لأن تكون ذيلاً لأي نظام ، وتبعاً للأهواء ، وبذلك **ينتهون إلى إلغاء وظيفة الدين، لأنهم بدلاً من تقويم عِوَج الحياة بنصوص الشريعة يحتالون على نصوص الشريعة حتى يبرروا بها عوج الحياة المعاصرة .**

نشأة « مسألة الحجاب » :

كان هذا الدور أخبث الأدوار وأخزاها في تاريخ المسلمين ، ففي هذا العصر نشأت (مسألة الحجاب) ، ولو كان البحث في هذه المسألة مقصوراً على تعيين الحد الذي وضعه الإسلام لحرية المرأة ، لهان الأمر ، ولم يستعص حله ، لأن أكثر ماهنالك من الاختلاف بين المسلمين في هذا الباب هو منحصر في وجه المرأة ويديها : هل يجوز إبداؤها أم لا ؟ وليس في هذا كبير خطورة ، ولكن الواقع ههنا غير ماذكرنا .

الواقع في الحقيقة أنه نشأت هذه المسألة في المسلمين لكون الغرب قد نظر

إلى الحجاب والنقاب بعين المقت والازدراء ، وصوره أقبح تصوير وأشنعه فيما كتب ونشر ، وعدَّ (حبس) المرأة ــ على حد تعبيره ــ من أبرز عيوب الإسلام ، ولكن أنّى للمنهزمين أن يغضوا عن هذه النقيصة التي أخذها (سادتهم) عليهم فيما أخذوا ؟! لقد فعلوا في هذه المسألة ــ الحجاب ــ مثل مافعلوا في مسائل الجهاد والرق وتعدد الزوجات ، وما شاكلها من المسائل ، فما كان منهم إلا أن عمدوا إلى الكتاب والسنة يتصفحون أوراقهما ، وإلى كتب الفقه والأحكام ينقبون عن اجتهادات الأئمة فيها ، وأقوال الفقهاء ، لعلهم يجدون في ثناياها مايعينهم على أن يغسلوا عن أنفسهم هذا العار الذميم الذي عيَّرهم به الغربيون .

فإذا بهم يقعون على أقوال لبعض الأئمة تجيز للمرأة أن تبدي وجهها وكفيها ، وتخرج كذلك من بيتها لحوائجها ، ويؤخذ منها أيضاً أن المرأة يجوز لها أن تشهد الحرب لسقي المجاهدين ومداواة الجرحى ، ثم وجدوا في تلك الأقوال إذناً بخروج المرأة إلى المسجد للصلاة ، وجلوسها للتعلم والتعليم ، فكفاهم هذا القدر من المعلومات لأن يدَّعوا أن الإسلام قد أعطى للمرأة حرية مطلقة[١٣] ، وأن الحجاب من تقاليد الجهلاء ، اتخذه المتأخرون من المسلمين الجامدين المتشددين ، ولا أثر له في آية ولا في حديث ، وإنما القرآن والسنة يعلمان الحياء والعفاف على سبيل التوجيه الخلقي العام ، وليس فيهما قانون أو ضابط يقيد حركة المرأة وتنقلها بقيد ما .

ومن الضعف الطبيعي في الإنسان أنه إذا اختار مذهباً من المذاهب في شؤون حياته يكون بدء اختياره لذلك المذهب بنزعة عاطفية غير عقلية ، ثم يأتي بعد ذلك فيستعين بالمنطق والعقل ليثبت كون نزعته تلك صحيحة معقولة ، كذلك وقع في أمر الحجاب أيضاً ، فما عرضت للمسلمين مسألة الحجاب لشعورهم بضرورة عقلية أو شرعية إليه ، وإنما أتت من ذلك الميل والنزوع الذي نشأ من تأثرهم ببريق

---

(١٣) يأتي في ثنايا هذا البحث إبطال هذه الادعاءات ومناقشة شبهات القوم إن شاء الله تعالى .

حضارة أمة غالية ، ومن ارتياعهم لدعاية تلك الأمة ضد التمدن الإسلامي .

وذلك أن المُسَمَّيْنَ برجال (الإصلاح) لما رأوا المرأة الأوربية وما هي عليه من زينة وحرية في الحركة والجولة ونشاط زائد في المجتمع الغربي .. لما رأوا كل هذا بعيون مسحورة وعقول مندهشة ، تمنوا بدافع الطبيعة أن يجدوا مثل ذلك في نسائهم أيضاً ، حتى يجاري تمدنهم تمدن الغرب ، ثم أثرت فيهم الدعوات الجديدة إلى تحرير المرأة وتعليم النساء ، ومساواتهن بالرجال .. تلك الدعوات التي كانت تنصبُّ عليهم كالوابل المدرار بلغة قوية منطقية ، وفي طبع أنيق جذاب ، حتى أماتت هذه الكتب والمنشورات الغربية بقوة دعايتها ملكة النقد والتجريح عندهم ، فاستقر في سويداء قلوبهم أنه لابد لكل من يرغب أن يُعَدَّ من (المتنورين التقدميين) ويدفع عن نفسه تهمة (الرجعية والتخلف) أن يؤمن بتلك النظريات إيمانه بالغيب ، ويؤيدها ، ويحامي عنها فيما يكتب ويخطب ، ثم يروجها في الحياة العملية بحسب ماأوتي من همة وجراءة ، كان هؤلاء تكاد تسوح بهم الأرض من فرط الخجل حينما يرون الغربيين يتهكمون بنسائهم المتنقبات المستورات في اللباس العادي ، وينبذونهن بـ(الجنائز المكفنة المتحركة) ، وإلى متى ـــ يا ترى ـــ يطيق القوم الصبر على هذه الوخزات ؟ .. لذلك استعدوا آخر الأمر ـــ طوعاً أو كرهاً ـــ لأن يقوموا فيدفعوا عن أنفسهم هذا العار المخزي .

وهذه النزعات والعواطف هي التي دفعت المنهزمين إلى أن يقوموا بحركة مايسمى : (تحرير المرأة) التي بدأوها في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي ، فمنهم من كانت هذه النزعات كامنة في شعورهم الخفي ، فلا يدرون بأنفسهم ماذا يجرهم ، ويدفعهم إلى تلك الحركة ، فكانوا مخدوعين عن أنفسهم ، ومنهم آخرون كانوا يشعرون بنزعاتهم شعوراً تاماً ، ولكنهم يستحيون ، ويحجمون عن إبداء نزعاتهم الحقيقية ، فهؤلاء لم يكونوا مخدوعين بل دهاة خادعين ، وأ يًّا كان الأمر فقد قام

كلا الفريقين بعمل واحد ألا وهو : سحب ذيل الخفاء على المحركات والدوافع الحقيقية لحركته تلك ، وحاول أن يظهرها بمظهر حركة عقلية بدلاً من إظهارها حركة عاطفية ، وساق في تأييدها جميع الأدلة التي تلقاها من الغرب مباشرة كصحة النساء ، وارتقائهن في مجالي الفكر والعمل ، وحقوقهن الفطرية ، واستقلالهن الاقتصادي ، وتخلصهن من ظلم الرجال وأثرتهم ، وانحصار رقي المدنية في رُقِيِّهن ، لكونهن شطراً كاملاً من الأمة ... إلى آخر هذه الحجج ، وحتى ينخدع عامة المسلمين ، ولا يفتضح عليهم صميم المقصد من تلك الحركة ، وهو حمل المرأة المسلمة على اقتفاء آثار المرأة الأوربية واتباع المناهج الاجتماعية الرائجة بين أمم الغرب أعني : اليهود والنصارى ... ولكن الأدهى والأخبث أنهم عادوا يخدعون الناس في هذا الصدد عن طريق احتيالهم في إثبات حركتهم الضالة بنصوص واستنباطات من الكتاب والسنة ، بالرغم من وجود البون الشاسع بين المنهج الإسلامي الرباني في الاجتماع ومقاصد هذه الشريعة العليا ، وبين مباديء النظام الاجتماعي الأوربي ومقاصده .

فإن المقصد الأعلى الذي يريد أن يحققه الاسلام من خلال نظامة الاجتماعي هو صون الأعراض ، وكبح جماح الشهوات ، وترويضها وضبطها وتقييدها بضوابط أخلاقية تضمن استعمالها في خير الإنسان وطهارته ، بدل إهمالها أو تضييعها في الفوضى والهمجية .

وأما النظام الاجتماعي الغربي فعلى العكس من ذلك يرمي إلى الحث على سير التمدن بإشراك المرأة والرجل في تدبير شؤون الحياة ، وتحمُّل تبعاتها على حدٍّ سواء ، واستعمال الشهوات في فنون ووسائل تحول متاعب الحياة إلى لذات ومسرات .

ومن هنا يتضح الفرق ، إذ إن الإسلام يضع نظاما للاجتماع ليخدم مقاصده ،

قد فُصل فيه بين دائرتي عمل الرجل والمرأة إلى حدٍّ كبير ، وحُظر اختلاط الذكور بالإناث بدون قيد خلقي ، ثم حسمت فيه جميع الأسباب التي يمكن أن تخل بهذا الضبط والتقييد ، وبذلك تجفف منابع الفتنة ، وتسد الذرائع إليها ، وتراعى حرمات الله وتؤدى حقوقه سبحانه وتعالى ، وكذا حقوق النفس وحقوق الخلق في انسجام فطري وتناسق طبيعي ، وهذا بخلاف النظام الأوربي الذي يدفع الجنسين إلى ميدان مشترك في الحياة ، مع رفع جميع الحجب من بينهما ، تلك الحجب التي تحول دون اختلاطهما الحر ، ومعاملتهما المطلقة التي لاتحدها حدود .

ولك أن تقدر شدة مكر القوم الذين يريدون من جانبهم أن يتبعوا التمدن الغربي ، ثم يبررون فعلهم هذا بقواعد النظام الإسلامي الاجتماعي .

إن أقصى ماأوتيت المرأة من الحرية في النظام الإسلامي هو أن تبدي وجهها وكفيها إذا دعت الضرورة ، وأن تخرج من بيتها لحاجتها ، ولكن هؤلاء يجعلون هذا الحد الأقصى من حريتها نقطة البدء وبداية المسير ، فيقومون إلى آخر حدود الإسلام ، ويتقدمون في سبيل الحرية ، ويتمادون إلى أن يخلعوا عن أنفسهم ثوب الحياء والاحتشام ، فلا يقف الأمر بإناثهم عند إبداء الوجه والكفين ، بل يجاوزه إلى تعرية الشعر والذراع والنحر إلى آخر هذه الهيأة القبيحة المعروفة ، وهي الهيأة التي لاتخص بها المرأة الأزواج والأخوات والمحارم فقط ، بل يخرجن بكل تبرج من بيوتهن ، ويمشين في الأسواق ، ويخالطن الرجال في الجامعات ، ويأتين الفنادق والمسارح ، ويتبسطن مع الرجال الأجانب ...

ثم يأتي القوم فيحملون رخصة الإسلام للمرأة في الخروج من البيت للحاجة وهي الرخصة المشروطة بالتستر والتعفف على أنها يحل لها أن تغدو وتروح في الطرقات ، وتتردد إلى المنتزهات والملاعب والسينما في أبهى زينة ، وأفتنها للناظرين ، ثم يُتَّخَذُ إذن الإسلام لها في ممارسة أمور غير الشؤون المنزلية ـــ ذلك الإذن

المقيد المشروط بأحوال خاصة ــ يتخذ حجة ودليلاً على أن تودِّع المرأة المسلمة جمبع تبعات الحياة المنزلية ، وتدخل في النشاط السياسي والاقتصادي والعمراني تماماً وحذو القُذَّة بالقذة كما فعلت الإفرنجية .

وهاهو ذا المودودي ــ رحمه الله ــ يصرخ في وجوه هؤلاء الأحرار في سياستهم ، العبيد في عقليتهم قائلاً :

(ولا ندري أيُّ القرآن أو الحديث يُستخرج منه جواز هذا النمط المبتذل من الحياة ؟ وإنكم ــ ياإخوان التجدد ــ إن شاء أحدكم أن يتبع غير سبيل الإسلام فهلا يجتريء ويصرح بأنه يريد أن يبغي على الإسلام ، ويتفلت من شرائعه ؟ وهلا يربأ بنفسه عن هذا النفاق الذميم والخيانة الوقحة التي تزيِّن له أن يتبع علناً ذلك النظام الاجتماعي ، وذلك النمط من الحياة الذي يحرِّمه الإسلام شكلاً وموضوعاً ، ثم يخطو الخطوة الأولى في هذا السبيل باسم اتباع القرآن كي ينخدع به الناس فيحسبوا أن خطواته التالية موافقة للقرآن)اهـ .

حركة « تحرير المرأة » في مصر

البذرة الأولى :

(إن المتتبع لتاريخ مايسمى بحركة « تحرير المرأة » في مصر ، يجد أن جذور هذه الحركة تمتد إلى عهد محمد علي باشا والي مصر ، حينما بعث المبعوثين إلى فرنسا ليتلقوا هناك الخبرات والمهارات الفنية ثم يحملوها معهم إلى مصر ، لكن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، بل رجع المبعوثون من فرنسا حاملين تيارات فكرية مادية دخيلة على دينهم ، بعد أن بهرتهم رهبانية العلم المادي ، وتعبدهم سلطان العقل ، لقد عاد أولئك المبعوثون يحتلون مراكز الصدارة والتوجيه في مختلف الميادين السياسية والتربوية والفكرية)[١٤] .

دور الشيخ « رفاعة الطهطاوي » (١٨٠١ ــ ١٨٧٣م) :

[وكان من أعضاء الجيل الأول لهؤلاء المبعوثين الشيخ « رفاعة رافع الطهطاوي » ، الذي أقام في باريس خمس سنوات « من ١٨٢٦ ــ ١٨٣١م» تقريباً ، وكان قد رافق البعثة المصرية كواعظ وإمام لها ، وما إن عاد إلى مصر حتى بدأ يبذر البذور الأولى لكثير من الدعوات الدخيلة على البيئة المصرية المسلمة ، تلك الدعوات التي حمل جراثيمها معه من فرنسا ، مثل الدعوة إلى فكرة « الوطنية القومية » بمفهومها المادي المحدود المنابذ للرابطة الإسلامية بين المسلمين مهما تباعدت أوطانهم ، وكذا استوحى من واقع الحياة الفرنسية أفكاراً عن المرأة هي أبعد

---

(١٠٤) انظر « الإسلام والحضارة الغربية » للدكتور « محمد محمد حسين » رحمه الله ص(١٧ ــ ١٨) .

ماتكون عن شرائع الإسلام وآدابه ، وقد تجلى ذلك في مواقفه الجريئة من قضايا تعليم الفتاة ، وتعدد الزوجات ، وتحديد الطلاق ، واختلاط الجنسين ، حيث ادَّعى في كتابه « تخليص الإبريز في تلخيص باريز »[١٥] (ص٣٠٥) أن (السفور والاختلاط بين الجنسين ليس داعياً إلى الفساد) اهـ ، وذلك ليبرر دعوته إلى (الاقتداء بالفرنسيين حتى في إنشاء المسارح والمراقص) ، مدعياً أن (الرقص على الطريقة الأوربية ليس من الفسق في شيء ، بل هو أناقة ، وفتوة) وأنه لايخرج عن قوانين الحياء ، ودعا المرأة إلى التعلم حتى تتمكن من تعاطي الأشغال والأعمال التي يتعاطاها الرجال][١٦] .

وهكذا كان « رفاعة الطهطاوي » أول من أثار قضية (تحرير المرأة) في مصر في القرن التاسع عشر الميلادي ، فسنَّ بذلك أسوأ السنن ، وبذر هذه الأفكار الدخيلة في التربية الإسلامية ، ولم يدرك أنه حين ينقل هذه الآراء خاصة مايتعلق منها بمدلول كلمة « الحرية » إلى المجتمع الإسلامي يمكن أن ينتهي إلى نفس النتيجة التي انتهت إليها أوربة وهي : نبذ الدين ، وتسفيه رجاله ، والخروج على حدوده ، لم يدرك ذلك ، ولم يلاحظ إلا الجانب البرَّاق الذي يأخذ نظر المحروم من الحرية ، حين تمارس في مختلف صورها وألوانها ، وفي أوسع حدودها ، فكان كالجائع المحروم الذي بهرته مائدة حافلة بألوان الأطعمة ، فيها مايلائمه ، وما لايلائمه ، ولكنه

---

(١٥) (وقد كتب الطهطاوي هذا الكتاب أثناء إقامته في فرنسا ، وعرضه على أستاذه (جومار) قبل أن ينشره بعد عودته) اهـ . من « السابق » ص(١٩ ــ ٢٠) .
(وقد بين لنا هذا الكتاب ــ أي : « تخليص الإبريز » ــ أن صاحبه خلق من جديد في الفترة التي قضاها في فرنسا ، يأنس إلى علمائها ، ويأنسون إليه ، فإذا عاد إلى القاهرة أشرف على حركة الترجمة ، وعُيِّن رئيساً لتحرير الوقائع المصرية ، وكتب المقالات ، وألف الكتب وترجم القوانين ، وعُيِّن ناظراً لمدرسة الألسن) اهـ من « تطور النهضة النسائية في مصر » « لإبراهيم عبده » ، و « درية شفيق » ص(٥٣) .

(١٦) « الإسلام والحضارة الغربية » د. محمد محمد حسين ص(٣٦) .

لم ينظر إليها إلا بعين حرمانه ، ولم يرها إلا صورة من النعيم الذي يتوق إليه ، ويشتهيه .

(وكانت دعوة جريئة من « رفاعة » ، لم يجد لها معارضاً خاصة وأن حاكم البلاد ، قد بارك دعوته ، وبارك أول كتاب وضعه « رفاعة » وهو « تخليص الإبريز في تلخيص باريز » يبرز فيه تقدم الغرب ، ويُحَسِّن لمواطنيه الانتفاع بتقدمه ، وأكثر من هذا فقد قرأ « محمد علي » الكتاب قبل نشره ـــ بناء على تزكية له من الشيخ « حسن العطار » شيخ الأزهر ـــ فأمر بطبعه ، وأصدر أمره بقراءته في قصوره ، وتوزيعه على الدواوين ، والمواظبة على تلاوته ، والانتفاع به في المدارس المصرية ، بل إنه أمر بعد ذلك بترجمته إلى التركية)[١٧] اهـ .

لقد كان « رفاعة » أول من وضع الأفكار النظرية موضع التنفيذ ، وأول من أنتج عملاً فكرياً يمهد لخطة اجتماعية عملية ، وتجلى ذلك في مؤلفيه (تخليص الإبريز) و (المرشد الأمين) الذي ألفه بناءً على أمر الخديوي « إسماعيل » وذلك عام (١٨٧٢) قبل افتتاح أول مدرسة للبنات ترعاها الحكومة بعام واحد ، وقبل موت « رفاعة » بأعوام قليلة ، ولما كان الخديوي « إسماعيل » يقود ـــ في بداية تلك المرحلة ـــ حركة التحديث في كل الميادين السياسية والفكرية والاجتماعية ، فقد حاول بعد ذلك أن يقنع أهل الرأي بتأليف كتاب في الحقوق والعقوبات يطبقه في المحاكم ، بحيث يكون سهل العبارة ، مرتب المسائل على نحو ترتيب القوانين الأوربية ، ولكن رفض أهل الرأي من مشايخ الأزهر هذه الدعوة ، فطلب الخديوي من الشيخ « رفاعة » إقناعهم بقبول ذلك ، ولكنه اعتذر عن ذلك على الوجه الذي وصفه الشيخ « رشيد رضا » في كتاب تاريخ الإمام « محمد عبده » على الوجه التالي :

---

(١٧) « المؤامرة على المرأة المسلمة » د . السيد أحمد فرج ص(٣٨) .

قال الشيخ « رشيد » : (حدثني « على باشا رفاعة بن رفاعة بك الطهطاوي » قال : إن « إسماعيل باشا » الخديوي لما ضاق بالمشايخ ذرعاً ، استحضر والده « رفاعة بك » ، وعهد إليه أن يجتهد في إقناع شيخ الأزهر وغيره من كبار الشيوخ بإجابة هذا الطلب ، وقال له : « إنك منهم ، ونشأت معهم ، وأنت أقدر على إقناعهم ، فأخبرهم أن أوربا تضطرب إذا هم لم يستجيبوا إلى الحكم بشريعة « نابليون » فأجابه بقوله : « إنني يامولاي قد شخت ، ولم يطعن أحد في ديني ، فلا تعرضني لتكفير مشايخ الأزهر إياي في آخر حياتي ، وأقلني من هذا الأمر ، فأقاله)[١٨] .

وكان أن انزوى « الطهطاوي » ، بعيداً عن مكان الصدارة ، وانتأى بعيداً ، ليحتل مكانه الشيخ « محمد عبده » الذي كان في ذلك الوقت في شرخ الشباب ، يحدوه جرأة الشباب وإقدامه ، وهنا تبدأ مرحلة جديدة من مراحل « تحرير المرأة » .

مرقص فهمي والقذيفة الأولى :

وفي سنة (١٨٩٤) ، أي بعد الاحتلال الإنكليزي لمصر بحوالي اثنتي عشرة سنة ، ظهر أول كتاب في مصر أصدره صليبي حقود من أولياء (كرومر) الملقب باللورد ، أظهره محتمياً بالنفوذ البريطاني الذي أمَّن له الطريق نحو طعن الإسلام وأهله ، ذلكم هو (مرقص فهمي) المحامي ، وكتابه هو (المرأة في الشرق) ، دعا فيه صراحة، وللمرة الأولى في تاريخ المرأة المسلمة إلى تحقيق أهداف خمسة محددة وهي :

أولاً : القضاء على الحجاب الإسلامي .

---

(١٨) « تاريخ الإمام محمد عبده » للشيخ « محمد رشيد رضا » (١/ ٦٢٠ ــ ٦٢١) .

ثانياً : إباحة اختلاط المرأة المسلمة بالأجانب عنها .

ثالثا : تقييد الطلاق ، وإيجاب وقوعه أمام القاضي .

رابعاً : منع الزواج بأكثر من واحدة .

خامساً : إباحة الزواج بين المسلمات والأقباط .

وقد أحدث الكتاب ضجة عنيفة ، ولم يلبث المسلمون حين صدموا به حتى انطلقت في غمرات هذه الضجة قذيفة أخرى تفجرت في الوسط الإسلامي :

« الدوق داركير » و « المصريون » :

فقد صدر كتاب ألفه (الدوق داركير)[١٩] باسم (المصريون) ، حمل فيه على نساء مصر ، وهاجم المصريين ، وتعدى على الإسلام ، ونال من الحجاب الإسلامي ، وقرار المرأة المسلمة في البيت ، واقتصار وظيفتها على تربية النشء ، ورعاية الزوج ، وقد هاجم (المثقفين) المصريين بصفة خاصة لسكوتهم ، وعدم تمردهم على هذه الأوضاع .

(وقد بدأ الاستعمار الإنكليزي إثر هذه الضجة يبحث عن وسيلة لشد أزر « مرقص فهمي » ، فلجأ إلى الأميرة (نازلي فاضل)[٢٠] ليستعجلها على عمل شيء يساند « **مرقص فهمي** » من خلال صالونها)[٢١] .

---

(١٩) وكان داركير قد زار مصر ثلاث مرات سائحاً عابراً في خريف عام (١٨٩٣م) .

(٢٠) وهي ابنة الأمير « مصطفى فاضل » باشا نجل « إبراهيم » باشا ابن « محمد علي » باشا الكبير ، كان والدها « مصطفى فاضل » يعتبر نفسه أحق بعرش مصر من الخديوي إسماعيل ، ومن هنا كانت الأميرة نازلي تعلن الحرب على الخديوي عباس) اهـ من جريدة المساء ، الخميس (٤ أغسطس ١٩٨٣م) من مقالة (هل انتحر محرر المرأة بسبب امرأة ؟) للصحافي « مصطفى أمين » .

(٢١) « الحركات النسائية في الشرق » لمحمد **فهمي** عبد الوهاب ص(١٣ ــ ١٤) طبعة دار الاعتصام .

الجـــــــذور [22]

كانت دعوة « تحرير المرأة » جزءاً من منهج كلي شمل كافة اتجاهات الحياة في المجتمع المصري ، وتعود خيوطه إلى مدرسة الشيخ « محمد عبده » تلميذ « جمال الدين الأفغاني » أو إن شئت « المتأفغن » [23] ، وقد سارا على الدرب الذي رسمه الطهطاوي ، وزاد الأفغاني نشاطه المريب ، وعلاقاته بالمحافل الماسونية ، وتبنيه لمباديء الثورة الفرنسية « الماسونية » [٥] .

ومع وجود بعض الجوانب المشرقة في منهاج « محمد عبده » إلا أننا لانستطيع أن نتجاهل نشاطه حيث كان له أخطر الأثر في عملية « التغريب » وتقريب الأمة الإسلامية نحو القيم الغربية ، مما جعل اللورد كرومر يشيد بدعوته وبتلامذته ، ويعلق عليهم أمله في « تغريب » المجتمع المصري ، ويذكر أنهم لذلك يستحقون (أن يعاونوا بكل ماهو مستطاع من عطف الأوربي وتشجيعه) اهـ .

ويكفي للتدليل على خطر هذه المدرسة أن نُقرر دور تلاميذها في إفساد الحياة في مصر :

فهذا (لطفي السيد) يحيي التاريخ الفرعوني ، والنعرة الوطنية الإقليمية ، ويرعى الدعوة إلى « الحرية » بمفهومها الغربي الدخيل على الأمة الإسلامية .

---

(٢٢) انظر « الإسلام والحضارة الغربية » ص(٤١ ــ ١٠٠) ، و « قاسم أمين » للدكتور « ماهر حسن فهمي » ص (١٩ ــ ٢٠) .

(٢٣) هناك خلاف منتشر في حقيقة نسب الأفغاني هل هو حقاً أفغاني أم أنه شيعي إيراني ، انظر (المجلة) العدد ٣/٢٣٣أغسطس ١٩٨٤م/ ٧ ذو القعدة ١٤٠٤هـ ــ ص(٦١ ــ ٦٣) ، وانظر أيضاً (الإسلام والحضارة الغربية) ص(٦١ ــ ٦٣) .

(٥) انظر : (دعوة جمال الدين الأفغاني في ميزان الإسلام) للأستاذ مصطفى فوزي بن عبد اللطيف غزال ، نشر (دار طيبة) ــ الرياض ، وهي دارسة كشفت كثيراً من جوانب الغموض في سيرته .

وهي كلها مباديء بلغت مداها على يد تلميذ آخر لمحمد عبده هو (سعد زغلول) .

وهذا تلميذه (قاسم أمين) يفسد الحياة الاجتماعية في مصر بدعوته إلى « تحرير المرأة » بالمعنى الذي يأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

لقد كان يريد « محمد عبده » أن يقيم سداً في وجه التيار العَلماني اللاديني ليحمي المجتمع الإسلامي من طوفانه ، ولكن الذي حدث هو أن هذا السد أصبح قنطرة للعلمانية ، عبرت عليه إلى العالم الإسلامي ، لتحتل المواقع واحداً تلو الآخر ، ثم جاء فريق من تلاميذ « محمد عبده » وأتباعه فدفعوا نظرياته واتجاهاته إلى أقصى طريق العَلمانية (اللادينية) .

رام نفعاً فضر من غير قصد ومن البر مايكون عقوقا



قاسم أمين (١٨٦٥م ــ ١٩٠٨م)

فتنة الأجيال، وداعية السفور في عهد الاحتلال

(ولد « قاسم أمين » في أول ديسمبر عام ١٨٦٣م بالإسكندرية، والتحق بمدرسة رأس التين الابتدائية بالإسكندرية، وكانت تقع بحي رأس التين إلى جوار السراي)[٢٤].

وقيل (إن أباه « محمد بك أمين » من أصل كردي[٢٥]، وقيل : (بل أصل الأسرة تركي، وإن بعض أفراد أسرة « محمد بك أمين » قد ولي « السليمانية » من أعمال العراق، وبقيت الأسرة ردحاً من الزمن تقوم بهذه الولاية، حتى ظُنَّ أنها كردية، وممن صحح هذا « أحمد خاكي » في كتابه « قاسم أمين »)[٢٦].

(وكان أبوه قد أخذ رهينة في الأستانة على أثر خلاف وقع بين الدولة العلية والأكراد، ثم جاء إلى مصر في عهد إسماعيل باشا، وانتظم في الجيش المصري، ورقي إلى رتبة أميرالاي، وتزوج بكريمة « أحمد بك خطاب » شقيق « إبراهيم باشا خطاب » فولدت له أولاداً كان أكبرهم « قاسم »)[٢٧].

(وفي سنة ١٨٨١م نال قاسم إجازة الحقوق، ثم عمل بمكتب صديق والده التركي « مصطفى فهمي » المحامي)[٢٨]، (وانضم للكوكبة التي كانت تحيط

(٢٤) (قاسم أمين) تأليف د. ماهر حسن فهمي ص(٣٠).

(٢٥) (بناة النهضة العربية) تأليف جرجي زيدان ص(٩٩).

(٢٦) (قاسم أمين) تأليف د. ماهر حسن فهمي ص(٢٨).

(٢٧) (بناة النهضة العربية) ص(٩٩).

(٢٨) (قاسم أمين) للدكتور ماهر حسن فهمي ص(٣٣).

بجمال الدين الأفغاني ، حيث التقى بمحمد عبده وسعد زغلول ومحمد فتحي زغلول وعبد الله النديم وأديب إسحاق وغيرهم)[٢٩] .

— رحل « قاسم » إلى فرنسا ليتم تعليمه هناك ، وانبهر بالحياة في أوربا حتى أنه صرح بأن (أكبر الأسباب في « انحطاط » الأمة المصرية ، تأخرها في الفنون الجميلة التمثيل والتصوير والموسيقى)[٣٠] ، (وبعد أن كان يقر العامة حين يقولون : « مصر أم الدنيا » فإنه الآن في باريس يقول إنَّ الأصح أن تُسَمَّى « خادمة الدنيا »)[٣١] .

(ويتعرف قاسم على صديقته الفرنسية « سلافا » التي تصاحبه إلى المجتمعات الفرنسية والحفلات ويتعرف إلى كثير من الأسر ، وتقوى العلاقة بينهما ، فبينما كان يقرأ في مصر مقدمة « ابن خلدون » وإحياء العلوم « للغزالي » والأغاني ، نجده في فرنسا يقرأ مع زميلته حكم « لارشفوكو » ، وشعر « لامارتين » وفلسفة « فنلون » و « رينان » ، وأعمال « فولتير » و « روسو » و « سبنسر » وغيرهم)[٣٢] .

(وكانت في فرنسا في الوقت نفسه حركة نسائية كما كانت في إنكلترا وأمريكا حركة نسائية أخرى ..)[٣٣] .

(كل هذه الأفكار تأثر بها مصري يعيش في قلب باريس، في قلب هذه النظريات)[٣٤] .

---

(٢٩) (قاسم أمين) لأحمد خاكي ص(٤٥) .

(٣٠) (كلمات) تأليف قاسم أمين ص (٢٤) .

(٣١) (قاسم أمين) للدكتور ماهر فهمي ص (٤٤) .

(٣٢) السابق ص (٤٠ — ٤١) .

(٣٣) السابق ص (٤٣) .

(٣٤) السابق ص (٤٣) .

(وفي هذا الوسط اضطرب قاسم المسلم الشرقي)[٣٥] .

(والتقى قاسم في فرنسا بالأفغاني ومحمد عبده ، وانضم إلى جمعية « العروة الوثقى » واتخذه محمد عبده مترجما له)[٣٦] .

(وبعد أن أتم قاسم دراسته في فرنسا طلب إليه أستاذه « لرنود » أن يعمل معه بضعة شهور يكتسب فيها خبرات عملية ، ووافق قاسم أمين)[٣٧] .

الخطوة الأولى :

رَدُّه على « داركير »

قرأ « قاسم أمين » كتاب « داركير » عن المصريين ، فتألم أشد الألم حتى قيل : إنه مرض عشرة أيام بعد قراءته لشدة تأثره ، فحاول أن يدافع عن المصريين والإسلام ، وألف ردًّا بالفرنسية ، حاول فيه تفنيد اتهاماته لمصر والمصريين ، وبين فيه فضائل الإسلام على المرأة المصرية ، ورفع من شأن الحجاب ، وعده دليلاً على كمال المرأة ، وحاول شرح الحكمة الإيجابية في قوانين الشرع الإسلامي ، إلا أن دفاعه قد بدا تبريرياً ، وشرحه قد اتسم بالخنوع والذلة فيقول ، وكأنه يناشد داركير أن يعتبر « الإسلام » في مرتبة « النصرانية » و « المجوسية » : (إن الإسلام دين خلقي ، لايقل عن المجوسية ولا عن المسيحية ، وإن روح القرآن لاتختلف عن الروح الإنجيلية)[٣٨] اهـ . ويقول أيضاً : (... ولهذا كان أمامها ــ أي مصر ــ طريقان : العودة إلى تقاليد الإسلام ، أو محاكاة أوربا ، وقد اختارت الطريق

---

(٣٥) السابق ص (٤٥) .

(٣٦) السابق ص (٤٧) .

(٣٧) السابق ص (٥١) .

(٣٨) (قاسم أمين ــ الأعمال الكاملة) تحقيق د. محمد عمارة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٦ ــ (ج١/ص٢١٧) .

الثاني ... إنها قد خطت اليوم بعيداً في هذا الطريق حتى ليصعب عليها الارتداد عنه ، إن مصر تتحول إلى بلدٍ أوربي بطريقة تثير الدهشة وقد أخذت إدارتها وأبنيتها وآثارها وشوارعها وعاداتها ولغتها وأدبها وذوقها وغذاؤها وثيابها تتسم كلها بطابع أوربي ... لقد اعتاد المصريون قضاء الصيف في أوربا (؟!) كما اعتاد الأوربيون قضاء الشتاء في مصر ، فلعل أوربا تقدر لمصر مسيرتها ، ولعلها ترد لها يوماً بعض هذا الود الكبير الذي تكنه لها مصر)[٣٩] اهـ ، ومما يجدر الإشارة إليه أن قاسماً استنكر في كتابه ـــ المصريون ـــ خطة بعض السيدات المصريات اللائي يتشبهن بالأوربيات ، فاقتنص بعض خصومه الفرصة ، ووشوا به إلى الأميرة نازلي بأن قاسماً إنما يعنيها هي بهذا التعريض بذم المصريات اللائي يقلدن الإفرنجيات ، ويسرن سيرتهن ، لأنه لم يكن في نساء مصر آنذاك من يتشبه بالنساء الأوربيات غيرها[٤٠]، فقد كانت الوحيدة التي تختلط بالرجال ، وتجالسهم في صالونها الذي افتتحته آنذاك ليكون مركزاً تبث منه الدعوة إلى التغريب عامة ، وإلى « تحرير المرأة » خاصة[٤١] .

---

(٣٩) المصدر السابق (٢٦٣/١) .

(٤٠) من مقال لداود بركات رئيس تحرير الأهرام (جريدة الأهرام مايو ١٩٢٨) .

(٤١) [وكان من رواد « صالون الضرار » هذا سعد زغلول والشيخ محمد عبده ، واللقاني ، ومحمد بيرم وغيرهم ، وكانت نازلي تؤيد هؤلاء في قصر الدوبارة وهو مقر المندوب السامي الإنكليزي ضد قصر عابدين ، وتسعى لترقيتهم ، وهم يعتمدون عليها في كل أمر ، وكانت الأميرة نازلي قد افتتحت هذا المنتدى إثر عودتها إلى مصر بعد الاحتلال ، وبعد أن قويت روابطها مع اللورد كرومر ، واتخذت من المعتمد البريطاني أداة لحماية رواد هذه الدعوة وتعبئتهم لتوجيه هذه الحركة متى أمكن ذلك]اهـ من (الأخوات المسلمات) ص٢٤٠ وما بعدها ، (الحركات النسائية في الشرق) ص١٥ ، مقالة « داود بركات » في عدد الأهرام الخاص بمرور ٧٥ عاماً على تأسيسه .

رد فعل الأميرة « نازلي » :

غضبت الأميرة مما فعله « قاسم أمين » وقالت للشيخ « محمد عبده » **قولاً** شديداً بعد أن هددت ، وتوعدت ، وقد أشير إلى جريدة (المقطم) لسان حال الإنكليز في مصر في ذلك الوقت ــ أن تكتب ست مقالات تتعقب آراء « قاسم أمين » في كتابه « المصريون » ، وتفند أخطاءه في دفاعه عن الحجاب ، واستنكاره الاختلاط بين الجنسين ، ولكن لم تلبث هذه الحملة أن ألغيت بعد أن اقتنع « قاسم أمين » بضرورة تصحيح خطئه[٤٢] ، واتفق معه « سعد زغلول » و « محمد عبده » على أن ينشر كتاباً يصحح فيه خطأه ، ويؤيد فيه الدوق « داركير » ، ويواصل مناصرته لكتاب (المرأة في الشرق) للقبطي « مرقص فهمي » ، وهكذا ! خرج « قاسم أمين » على البلاد بكتابه « تحرير المرأة » سنة (١٨٩٩م) ، ودعا فيه إلى نفس ماسبق أن دعا إليه ذلك الصليبي بحذافيره ، اللهم إلا أنه لم يتعرض لمسألة زواج المسلمات من الأقباط .

---

(٤٢) وقد حكت « هدى شعراوي » في مذكراتها المنشورة بمجلة (حواء) العدد رقم (١٢٢١) بتاريخ ١٦ فبراير ١٩٨٠م عن الشيخ عبد العزيز البشري أنه قال في احتفالٍ بذكرى قاسم أمين : (إن كثيرين من الحاضرين كانوا أشد من وجع الضرس وضرباته على دعوة قاسم أمين وعلى شخص قاسم أمين ، وقال : إن قاسماً كان في مبدأ حياته من الرجعيين ، حتى إنه لما رد على الدوق « داركير » دافع عن الحجاب واستنكر السفور ، فظنت الأميرة « نازلي فاضل » ــ وكان مجلسها يجمع العلماء والفضلاء أمثال محمد عبده وسعد زغلول وعبد الكريم سلمان وفارس نمر ويعقوب صروف والمويلحي وابنه ــ أنه يقصدها ، فغضبت لذلك ، ولكن سعداً قدم صديقه إليها ، ولما رأى شدة عقلها ورجاحة حلمها ووثاقة فضلها ، انقلب عن رأيه ، وأخذ يطالب بتحرير المرأة)اهـ .

أثر الأميرة «نازلي» في فكر الشيخ «محمد عبده»:

كان الشيخ «محمد عبده» مقرباً لدى الأميرة «نازلي فاضل»، وقد سعى لأستاذه «الأفغاني» كي يتوسط لها لدى السلطان في الآستانة، ليمنحها وساماً سلطانياً(٤٣).

وكانت هي قد سعت لدى الخديوي «توفيق» ليعفو عن الشيخ «محمد عبده» عقب عودته من منفاه، كما التمست وساطة «كرومر» للأمر نفسه(٤٤)، وتم المراد، وعفا عنه الخديوي.

وقد أدركت تلك الأميرة ما للشيخ من تفوق عقلي وخلقي فَخَصَّته بمكانة متميزة(٤٥).

وقد ظهر تأثيرها على موقف الشيخ «محمد عبده» من الإنكليز الذين كان يشتد عليهم قبل التعرف على الأميرة، أثناء صحبة الأفغاني وعقب الثورة العرابية، أما بعد اتصال الشيخ بالأميرة، التي كانت صديقة لبعض الإنكليز، فقد خفت حملته ضد إنكلترا، وسمح بصداقته الشخصية للورد «كرومر» صديق الأميرة(٤٦)، وهذا ما أحنق صدور بعض الوطنيين عليه، وإن دافع عنه تلاميذه بقولهم: «إنه سمح بصداقته للورد «كرومر» دون تفريط في حق بلاده، أو عدول عن رأيه السياسي» اهـ.

---

(٤٣) (تاريخ الإمام محمد عبده) (٨٩٧/١).

(٤٤) السابق (٨٩٥/١).

(٤٥) مجلة الهلال ــ العدد الماسي ص(٢٢٥) من (الهلال) ج٧ م٦٦.

(٤٦) السابق.

الخطوة الثانية :

كتاب « تحرير المرأة »[٤٨]

ظروف تأليف الكتاب :

كتب (فارس نمر) صاحب (المقطم) في مقال له في مجلة (الحديث) الحلبية عام ١٩٢٩ م يقول : (إن الشيخ « محمد عبده » تطوع للقيام بهذه المهمة[٤٩] ، وتحدث الشيخ « محمد عبده » مع الأميرة « نازلي » في هذا الشأن ، واتفق « محمد عبده » و « سعد زغلول » و « محمد المويلحي » وغيرهم على أن يتقدم « قاسم أمين » بالاعتذار إلى سمو الأميرة ، فقبلت اعتذاره ، ثم أخذ يتردد على صالونها ، وارتفع مقامها لديه ، وإذا به يضع كتابه الأول عن المرأة ، الذي كان الفضل فيه للأميرة نازلي ، والذي أقام الدنيا وأقعدها ، بعد أن كان « قاسم أمين » أكثر الناس دعوة إلى الحجاب) اهـ .

نظرة في الكتاب :

طبع الكتاب في سنة ١٨٩٩م ، وقد ألغى فيه أفكاره الدفاعية التي أوردها في

---

(٤٨) بتأمل عنوان الكتاب يتبين لنا أنه كان يعتبر المرأة مستعبدة ، وقد أخذ على نفسه أن يحررها ، وقد جاء في مجلة الهلال أنه كان (يعلم مايعتور مشروعه من العقبات وما سيلقاه من مقاومة تيار الرأي العام لأن إصلاح المرأة يقتضي منحها الحرية ، ويتناول تقبيح الحجاب ، والنهي عن الطلاق وتعدد الزوجات ، مما يعده العامة من قبيل العقائد الدينية ، وهو ليس من الدين في شيء ، فاضطر أن يبين ذلك في أثناء بحثه) اهـ من مقدمة « أسباب ونتائج لقاسم أمين » ص(١٠) ، وانظر أيضا (بناة النهضة العربية) لجرجي زيدان ص (١٠١) .

(٤٩) يشير إلى إيقاف مقالات الهجوم على « قاسم أمين » .

كتابه السابق (المصريون)[٥٠] سواء المتعلقة بتقييمه للإنسان المصري، أو المتعلقة بالمرأة المصرية، أو أحكام الشريعة وما يسميه (المدنية الإسلامية)، فبينما نجده في كتابه (المصريون) يصف المصري بالأمانة والشجاعة والذكاء وقوة الاحتمال، ويعزي هذه الخصال الجيدة لحقيقة الهوية الإسلامية للمصري، نجده يقول بعد خمس سنوات في كتابه (تحرير المرأة) : (... فالتركي، مثلا، نظيف صادق شجاع، والمصري على ضد ذلك، إلا أنك تراهما رغماً عن هذا الاختلاف متفقين في الجهل والكسل والانحطاط، إذن لابد أن يكون بينهما أمر جامع، وعلة مشتركة هي السبب الذي أوقعهما معا في حالة واحدة، ولما لم يكن هناك أمر يشمل المسلمين جميعاً إلا الدين، ذهب جمهور « الأوروباويين »، وتبعهم قسم عظيم من نخبة المسلمين، إلى أن الدين هو السبب الوحيد في انحطاط المسلمين وتأخرهم عن غيرهم ...)[٥١]، وقد انصرف جهد المؤلف في هذا الكتاب إلى التدليل على مازعمه من أن (حجاب المرأة بوضعه السائد[٥٢] ليس من الإسلام، وأن الدعوة إلى السفور[٥٣] ليس فيها خروج على الدين أو مخالفة لقواعده) .

وقد تناول في كتابه هذا أربع مسائل، وهي : الحجاب، واشتغال المرأة بالشؤون العامة، وتعدد الزوجات، والطلاق، وهو يذهب في كل مسألة من هذه المسائل إلى مايطابق مذهب الغربيين، زاعماً أن ذلك هو مذهب الإسلام ــ قال : (سيقول قوم إن ماأنشره اليوم بدعة، فأقول : نعم ! أتيت ببدعة، ولكنها ليست في الإسلام، بل في العوائد وطرق المعاملة التي يحمد طلب الكمال فيها)[٥٤] .

(٥٠) بل لم يحاول نقل كتابه (المصريون) إلى اللغة العربية ولا إعادة إصداره في مصر .

(٥١) (قاسم أمين ــ الأعمال الكاملة) (٧٢/٢) .

(٥٢) يقصد تغطية المرأة جميع بدنها عن الأجانب .

(٥٣) يقصد به كشف المرأة وجهها .

(٥٤) « تحرير المرأة » ص(٥)، ط محمد زكي الدين بالقاهرة ١٣٤٧هـ .

والذي يهمنا فيما نحن بصدده، ماكتبه فيما يتعلق بالحجاب :

لقد اعتبر « قاسم أمين » الحجاب (أصلاً من أصول الأدب يلزم التمسك به، ولكنه يطالب بأن يكون منطبقاً على الشريعة الإسلامية)[٥٥]، ثم يقول : (إن الشريعة ليس فيها نص يوجب الحجاب على الطريقة المعهودة) وإنما هي في زعمه (عادة عرضت لهم من مخالطة بعض الأمم، فاستحسنوها، وأخذوا بها، وبالغوا فيها، وألبسوها لباس الدين، كسائر العادات الضارة التي تمكنت في الناس باسم الدين، والدين براء منها)[٥٦].

ثم يورد « قاسم » أمين قوله تعالى : ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ماظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن** ﴾الآيتان[٥٧].

ثم يقول : (إن الآية قد أباحت أن تظهر بعض أعضاء من جسم المرأة أمام الأجنبي عنها، غير أنها لم تُسَمِّ تلك المواضع، وقد قال العلماء[٥٨] : إنها وكلت فهمها وتعيينها إلى ماكان معروفاً في العادة وقت الخطاب، واتفق الأئمة على أن الوجه والكفين مما شمله الاستثناء في الآية، ووقع الخلاف بينهم في أعضاء أخر كالذراعين والقدمين)[٥٩] اهـ .

ثم ينتقل إلى الكلام على الحجاب بمعنى قصر المرأة في بيتها، وحظر

---

(٥٥) « تحرير المرأة » ص(٥٤) .

(٥٦) « المصدر السابق » ص (٥٧ ــ ٥٨) .

(٥٧) سورة النور (٣٠ ــ ٣١) .

(٥٨) كذا ! ولم يُسَمِّ واحداً منهم .

(٥٩) « تحرير المرأة » ص (٥٨) .

مخالطتها بالرجال ، فيقول : (إن الحجاب بهذا المعنى هو تشريع خاص بنساء النبي ﷺ ، ويستشهد على ذلك بقوله تعالى : ﴿ **وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب** ﴾[٦٠] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ **يانساء النبي لستن كأحد من النساء** ﴾[٦١] الآية .

أما نساء المسلمين عامة فهن ـــ في زعمه ـــ منهيات عن الخلوة بالأجنبي فقط[٦٢]اهـ .

ويستمر (قاسم) بنفس التهافت في علاج القضايا الأخرى ، ويزيد على ذلك تهكمه بالفقهاء ، واستهزاءه بعلماء الشريعة ، بل وبنصوصها الصريحة ، كما فعل في قضية تعدد الزوجات ، وهو في كل ذلك يستدل بالنصوص القرآنية والأحاديث النبوية[٦٣] ، ثم يعرض لشرحها شرحاً ملتوياً مغرضاً يوجه لتبرير فكرة معينة ، يحاول أن يسخر النصوص لخدمتها تلبيساً على ضحاياه المخدوعين .

وما أصدق ماقاله بعض معاصريه : (مارأيت باطلاً أشبه بحق من كلام « قاسم أمين » ، بل هذا « أحمد شوقي » يشير إلى لباقة « قاسم أمين » في دعم

---

(٦٠) الأحزاب (٥٣) .

(٦١) الأحزاب (٣٢) .

(٦٢) اقتضت الضرورةُ « عدوَّ المرأة المسلمة » أن يتظاهر في بعض المواضع بمظهر المسلم الوقور الغيور على دينه ، الحافظ لحدود الله ، المحترِم للفقهاء والأدلة الشرعية ، بينما تخلى عن هذا القناع في مثل قوله : (في البلاد الحرة قد يجاهر الإنسان بأن لاوطن له ، ويكفر بالله ورسله ، ويطعن على شرائع قومه وآدابهم وعاداتهم ... يقول ويكتب ماشاء في ذلك ، ولا يفكر أحد أن ينقص شيئاً من احترامه لشخصه متى كان قوله صادراً عن نية حسنة ، واعتقاد صحيح (!) ، كم من الزمن يمر على مصر قبل أن تبلغ هذه الدرجة من الحرية ؟) اهـ من (قاسم أمين ـــ الأعمال الكاملة) (١٦٥/١) .

(٦٣) « تحرير المرأة » ص(٦٨) ، هذا وقد وقع في آخر جملة في الكتاب خطأ مطبعي غير مقصود لفظاً ، ولكن لايبعد أن الحكمة الإلهية شاءت أن يقع في محله لأنه مطابق لمقصود الكتاب ، ألا وهو قول « قاسم أمين » : (تم كتاب تجريد المرأة) !

دعوته بالقرآن والسنة ، متسائلاً : أكان « قاسم أمين » يَغَارُ على الإسلام أم يُغير عليه ؟!

ولك البيانُ الجَزْلُ في أثنائه العلم الغزيرْ
في مطلبٍ خَشِنٍ كثـ ـيرٌ في مزالقه العُثور
ما بالكتاب ولا الحديـ ـث إذا ذكرتَهُما نكير
حتى لنسألُ هل تغـ ـار على العقائد أم تُغير[٦٤] ؟

وقد علق الدكتور « محمد محمد حسين » ـــ رحمه الله ـــ على هذا المنهج اللئيم بقوله : (أحب أن أسأل الذين يحاولون أن يسوغوا باطلهم الذي يقحمونه على إسلامنا بمزاعم يتحايلون على إلصاقها بالدين ونصوصه ، أحب أن أسأل سؤالاً حاسماً يفرق بين الحق والباطل : هل تعلمون أن أحداً من المسلمين قد دعا قبل اليوم بدعوتكم ؟ فإذا كان ذلك لم يحدث من قبل فهل تستطيعون أن تزعموا أن صحابة رسول لله ـــ ﷺ ، ورضي الله عنهم ـــ وفقهاء المسلمين قد غفلوا جميعاً عن فهم نصوص دينهم ، حتى جاء هؤلاء الذين أوحى إليهم شياطين الجن والإنس في باريس من أمثال « قاسم أمين » فانتكس تفكيرهم بين معاهدها ومباذلها ، حين لم يعتصموا من دين الله بحبل متين ، ولم يأووا بهديه إلى ركن شديد ، يذود عنهم كل شيطان مريد ، وذلك حين بُعِثوا إلى تلك البلاد لينقلوا إلينا الصالح النافع من علومها وصناعاتها ، فضلُّوا الطريق ، وعادوا إلينا بغير الوجه الذي بعثوا به ، جاء هؤلاء بعد ثلاثة عشر قرناً من نزول القرآن ليخرجوا للناس حقائق التنزيل التي غاب علمها عن الأولين والآخرين من الفقهاء والمفسرين ، ويضربوا بإجماع المسلمين في الأجيال المتعاقبة والقرون المتطاولة عُرْضَ الحائط ، أليس ابتداع هذه الدعوة في ظل الاحتلال

(٦٤) « الشوقيات » (١٦٨/٢) .

الإنكليزي ، وتزعم فريق من المتفرنجين الذين عرفوا بموالاة ذلك الأجنبي المحتل ، هو وحده دليلاً كافياً على أنها طارئة علينا من الغرب تقليدا لمذاهب أهله المبتدعين في دينهم بأهوائهم وأهواء رؤسائهم ، والخارجين على نصرانيتهم وكتابها) اهـ[٦٥] .

هل كان للشيخ « محمد عبده » (١٨٤٢ ــ ١٩٠٥م) دور في الكتاب ؟

(كان المعروف عن قاسم أمين أنه ليس له إلمام بالعلوم الإسلامية بحيث يتمكن من إضفاء الصِّبْغَةِ الفقهية على كتابه ، ومن هنا شاع بين الناس وقتها أن مؤلفه في الحقيقة هو أستاذه الشيخ « محمد عبده »)[٦٦] .

قال الدكتور « محمد محمد حسين » : (جاء كتابه ــ تحرير المرأة ــ مملوءاً بالمغالطات سواء كان ذلك في تفسير الآيات القرآنية أو في النصوص التاريخية والفقهية أو الأدلة العقلية ، وهذا الاتجاه الذي يفسر النصوص تفسيراً جديداً مخالفاً لكل ماهو ثابت متواتر في تفسيرها هو جزء من اتجاه عام تزعمه الشيخ « محمد عبده » متذرعا إليه بالدعوة إلى فتح باب الاجتهاد الذي زعم أن الفقهاء أغلقوا بابه ، وهو يدعو إلى الملاءمة بين الإسلام وبين الحضارة الغربية)[٦٧] اهـ .

قال « داود بركات » رئيس تحرير الأهرام : (وقد حمل الشيخ « محمد عبده » الدعوة إلى تحرير المرأة في دروسه في الرواق العباسي بالأزهر ، حين « أعلن » أن الرجل والمرأة يتساويان عند الله ، وقد ترددت آراء كثيرة بأن الشيخ « محمد عبده » كتب بعض فصول الكتاب ، أو كان له دور في

---

(٦٥) « حصوننا مهددة من داخلها » (ص١٢١ ــ ١٢٢) طبعة المكتب الاسلامي (١٣٩٨هـ) .

(٦٦) « الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر » (١/٢٨١ ــ ٢٨٢) للدكتور « محمد محمد حسين » رحمه الله .

(٦٧) « الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر » (١/٢٨١ ــ ٢٨٢) للدكتور « محمد محمد حسين » رحمه الله .

مراجعتها)[٦٨] .

ومما أورده « لطفي السيد » : (أنه اجتمع في جنيف عام ١٨٩٧م بالشيخ « محمد عبده » و « قاسم أمين » و « سعد زغلول » ، وأن « قاسم أمين » أخذ يتلو عليه فقرات من كتاب « تحرير المرأة » وصفت بأنها تنم عن أسلوب الشيخ « محمد عبده »)[٦٩]اهـ .

وقالت « وداد السكاكيني » :

(فتح ــ أي محمد عبده ــ على الناس أبواباً جديدة ، تلج منها المرأة المسلمة إلى الحياة ، التي وهبها الخالق إياها ، كما وهبها للرجل ، ولكن النفوس لم تكن هُيِّئت تمام التهيؤ في البداية ، ورأى الإمام ألا يخاطر ، فيلج بنفسه هذا الميدان ، ويرقى مرتقاه الصعب ، فيقف أمام الجهلاء يحاربونه ، فيؤثر ذلك على مركزه كإمام للإصلاح يستند على الدين ، وتضيع بذلك فرص في الإصلاح في الميادين الأخرى ، فهيأ لهذا الميدان بالذات جندياً يصلح له من تلاميذه ، هو « قاسم أمين » ، ثم وقف يسانده ، ويحميه من بعيد ، حتى وصلت الدعوة في تحرير المرأة إلى أبعد مما كان يقصد الشيخ « محمد عبده » .

إذن لم تكن « دعوة قاسم » أمين مبتكرة ، ولا بدعة في سبقها)[٧٠]اهـ .

وقال د. « محمد عمارة » جامع الأعمال الكاملة لـ « قاسم أمين » ومحققها :

---

(٦٨) الأهرام ــ مايو ١٩٢٨م ، وانظر (دحض بدعة المساواة بين الرجل والمرأة) في القسم الثاني من هذا الكتاب . ص(٩٣ ــ ١١٥) .

(٦٩) نقلا عن كتاب (الأخوات المسلمات) ص(٢٤٧)، وانظر (تطور النهضة النسائية) « لإبراهيم عبده » و « درية شفيق » ص(٧٤)، (٧٥) .

(٧٠) « قاسم أمين » لوداد السكاكيني ص (٤٦) .

(... ففي تحرير المرأة وبالذات في الفصول التي تتناول وجهة نظر الشريعة والدين في هذه القضية ، نلتقي بمجموعة من الآراء الفقهية والمناقشات لايستطيع أن يبحثها ، ولا أن يستخلصها كاتب مثل « قاسم أمين »، وأهم من ذلك نجد أحكاماً كلية تدل على أن صاحبها ومصدرها قد استقصى بحث هذا الأمر في جميع مصادره الرئيسية في الفكر الإسلامي ، على اختلاف مذاهبه وتياراته الفكرية ، وهو الأمر الذي لانعتقد أنه قد توافر في ذلك العصر سوى لقلة قليلة في مقدمتهم جميعاً الأستاذ الإمام « محمد عبده »)[٧١]اهـ .

بينما يجزم د. « محمد عمارة » في موضع آخر بهذه النسبة المشار إليها آنفاً بقوله ـــ وهو يعدد إنجازات الشيخ « محمد عبده » ـــ : (ومن أبرز أعماله الفكرية في هذه المرحلة ... الفصول التي شارك بها في كتاب « تحرير المرأة » لقاسم أمين سنة ١٨٩٩م)[٧٢]اهـ .

وذكرت « درية شفيق » أن دور « محمد عبده » في الكتاب قد (أثار حفيظة بعض الرجعيين الذين اتهموه بالزيغ والكفران)[٧٣] .

وقال الدكتور السيد أحمد فرج ـــ حفظه الله ـــ : [وقد بالغ بعض الكتاب فرأى أن فصولاً كاملة بنصوصها في كتاب « تحرير المرأة » كتبها الشيخ « محمد عبده » من إنشائه، وهي الفصول الآتية :

١ ـــ حجاب النساء من الجهة الدينية ص(٥٩ ـــ ٧٢) .

٢ ـــ الزواج ص(١٢٣ ـــ ١٣٢) .

٣ ـــ تعدد الزوجات ص(١٣٣ ـــ ١٤٠) .

---

(٧١) (قاسم أمين الأعمال الكاملة) المقدمة : دراسة في فكر « قاسم أمين » ص (١٤٤) .

(٧٢) (الإسلام والمرأة في رأي الإمام محمد عبده) ص(١٣٨) .

(٧٣) (تطور النهضة النسائية) ص(٧٨) .

٤ ــ الطلاق ص(١٤١ ــ ١٦٤) .

(محمد عمارة ــ الأعمال الكاملة « لمحمد عبده » ٢/١٠٥ ــ ١٢٩ بيروت ١٩٧٢) ، وهذا الادعاء من كاتبه يرد عليه ، لأنه يحتاج إلى دليل يوثقه ، والأرجح أنها من فكر الشيخ « محمد عبده » وإنشاء كاتبها ، فالشيخ هو الذي وجه الأفكار ، وأرشد إلى ما يحتاجه الكاتب من نصوص الكتاب والسنة وكتب الفقه الإسلامي ، وهو الذي أرشده تبوجيهاته أثناء الكتابة أو قراءة أصول الكتاب قبل طبعه ــ كما جاء في مذكرات « أحمد لطفي السيد » .

والمعروف عن الشيخ « محمد عبده » أنه كان يملي الأفكار ، ويوجه إليها أكثر مما يكتب ، هكذا فعل مع « قاسم أمين » ومع أشهر تلاميذه في مجال الإصلاح الإسلامي السيد « محمد رشيد رضا »] (٧٤) .

بين « قاسم » و « سعد » .

قال الصحافي (مصطفى أمين) : (كان « قاسم أمين » لا يفترق عن « سعد زغلول » ، وكان « قاسم أمين » هو الذي توسط في زواج « سعد زغلول » بصفية زغلول ، وكان « سعد زغلول » هو الذي وقف إلى جوار « قاسم أمين » عندما أصدر كتاب (تحرير المرأة) ، وهوجم بعنف وضراوة ، واتهم بالكفر الدَّ ... ، ومنع من دخول مصر قصر الخديوي بدعوى أنه يدعو إلى الإباجية ، وأقفل الناس بيوتهم في وجهه ، وذهب عدد من الشبان المتحمسين إلى بيته في شارع الهرم ، واقتحموا بيته ، وطالبوا « قاسم أمين » أن يسمح لهم بأن يجتمعوا على انفراد تطبيقاً لدعوته إلى سفور المرأة .

عندما أقفل كبار المصريين في وجه « قاسم أمين » فتح « سعد » له بيته ،

(٧٤) المؤامرة على المرأة المسلمة : تاريخ ووثائق » ص(٧٦ ــ ٧٧) .

ودعاه هو وزوجته ليتناول الغداء والعشاء على مائدته ومائدة « صفية زغلول »، وأصر أن يخرج في عربته مع « قاسم أمين »، ويطوف شوارع العاصمة متحدياً للأصدقاء الذين نصحوه بأن لا يظهر مع « قاسم أمين » في مكان عام، وإلا ضربه الناس بالطوب، وعندما وضع « قاسم أمين » كتابه الثاني « المرأة الجديدة » متحدياً العاصفة الهوجاء، ومطالباً بأن تحضر المرأة مجالس الرجال، وتمارس الأعمال الحرة، أهدي كتابه الجديد إلى « سعد زغلول » صديقه الحميم، ونصيره الأول)[٧٥]اهـ .

دور سعد زغلول :

قال العقاد : (وكان ــ أي « سعد زغول » ــ رجلاً له رأي في المرأة، وفيما ينبغي أن تكون عليه شريكة الحياة، يخالف رأي السواد الغالب في تلك الأوقات، وفي جميع الأوقات، وحسبه من ذلك أنه هو الذي أعان « قاسم أمين » زميله وصديقه الحميم على إظهار كتابه في « تحرير المرأة » وتشجيعه على احتمال مالقي في سبيله من سخط وعناء)[٧٦]اهـ .

وقال الدكتور « السيد أحمد فرج » ــ حفظه الله ــ : (والرأي أنه لم يكن في استطاعة « قاسم أمين » أن يبرز نفسه بهذه الآراء الجريئة ــ في ذلك العصر ــ لولا تعضيد الإمام « محمد عبده »، وأحد تلاميذه الذي صار زعيماً للأمة « سعد زغلول » باشا، وقد بلغ حب « قاسم أمين » لهما مبلغاً كبيراً، فأهدى كتابه الثاني « المرأة الجديدة » لسعد زغلول، واستشهد على صحة أقواله فيه، بمباركة الشيخ « محمد عبده » لها، وبنشركل بنود اقتراح الشيخ في شأن

---

(٧٥) نقلاً عن « جريدة المساء » الخميس ٤ أغسطس ١٩٨٣ مقالة بعنوان (هل انتحر محرر المرأة ؟) . هذا وقد ذكر الصحافي (مصطفى أمين) في مقالته هذه أنه حدثت قطيعة بين الصديقين حتى الموت تسببت من لعب « قاسم أمين » بالورق « القمار » حتى خسر مبالغ طائلة أودت بثروته، وأثقلته بالدَّيْن .

(٧٦) (سعد زغلول) تأليف « عباس محمود العقاد » ص(٥٢٧) .

إصلاح قانون الأحوال الشخصية في آخره .

و« سعد زغلول » ــ في الحقيقة ــ هو الذي ضمن تنفيذ أفكار « قاسم أمين » تنفيذاً عملياً ، فقد رحل الشيخ « محمد عبده » سنة ١٩٠٥ ، ورحل تلميذه « قاسم أمين » بعده بسنوات قليلة ، وكان في ميعة شبابه ، ثم بقي « سعد زغلول » ، وقد أهَّلته مواهبه الفذة أن يقود المجتمع ، ويكيفه كما يريد ، وكان قادرا خاصة وأن الظروف الاجتماعية والفورة الوطنية قد هيأتا الناس لتقبل الأفكار الجديدة ، ووضعها موضع التنفيذ العملي ، « فقد ظل العقلاء ــ كما سماهم « جرجي زيدان » ــ يتهامسون في موضوع تحرير المرأة ... حتى صرح الشيخ « محمد عبده » بآرائه ، فكثر مريدوه ، والمُؤَمِّنون على أقواله وأول أولئك « قاسم أمين »[٧٧] ، و « سعد زغلول » المنفذ الحقيقي لهذه الأفكار)[٧٨] اهـ .

وأيًّا ماكان الأمر فقد أحدث الكتاب ضجة عنيفة لأنه صادر من (مسلم) يشغل وظيفة مستشار في الدولة ، سبق له أن هاجم أعداء الحجاب منذ وقت قريب ، ولم تقتصر هذه الضجة على الأوساط الإسلامية الغيورة على دينها ، بل شملت الأوساط « الوطنية » و « الأدبية » .

ردود فعل كتاب « تحرير المرأة » :

تجلت ردود الفعل في موجة عارمة من المعارضة ، كان أكثرها مقالات صحافية ، وقد اتهمه المعارضون بالهذيان ، وبأنه ممن تخطف زخارف التمدن الغربي بصائرهم ، يرى المحاسن ، ولا يرى المساوىء ، وهاجمه علماء الدين هجوماً عنيفاً ، وحكم الفقهاء بأنه خرْقٌ في الإسلام ومروق من الدين ، وعدها الكثيرون ضرباً من

(٧٧) « بناة النهضة العربية » « لجرجي زيدان » ص (١٠٥) .

(٧٨) « المؤامرة على المرأة المسلمة » ص(٦٤) .

المبالغة في تقليد الغربيين ، واتهمه آخرون بالجناية على الدين ثم الوطن ، وأنه يرمي إلى قلب الهيأة الاجتماعية المصرية ، وممالأة الإنكليز على ضياع البلاد ، وأنه ينفذ أمنية من أماني الأمم الصليبية التي تريد بها هدم الإسلام ، وتقويض الآداب والأخلاق ، وتحريض النساء على الفساد ، واتهموا من يعضد هذه الدعوة بأنه ليس من المسلمين .

وبادر إلى مناصرة « قاسم » حفنة من الكتاب وعلى رأسهم (جرجى نقولا باز) الذي ألف تأييداً لقاسم كتابين أحدهما : (إكليل غار على رأس المرأة) ، والآخر : (النسائيات)[٧٩] .

ولم يكتف دعاة الحق وأنصار الحجاب بالمقالات العنيفة ، بل ألفوا الكتب العديدة (التي بلغ عددها مائة كتاب)[٨٠] تبطل شبهات قاسم وتقيم الحجة عليه من أدلة الشريعة المطهرة .

من هذه الكتب :

(« السنة والكتاب في حكم التربية والحجاب » لمحمد إبراهيم القاياتي .

ومنها : « الجليس الأنيس في التحذير عما في تحرير المرأة من التلبيس » لمحمد أحمد حسنين البولاقي .

ومنها : « خلاصة الأدب » لحسين الرفاعي .

ومنها : « نظرات في السفور والحجاب » لمصطفى الغلاييني .

ومنها : « قولي في المرأة » لمصطفى صبري .

ومنها : « رسالة في مشروعية الحجاب » لمصطفى نجا .

---

(٧٩) « قاسم أمين » د.« ماهر حسن فهمي » ص(١٧٢) .

(٨٠) « تطور النهضة النسائية » ص(١٢) .

ومنها : « رسالة الفتى والفتاة » لعبد الرحمن الحمصي)[٨١] .

موقف « محمد طلعت حرب » :

على أن أول كتاب ألف في الرد على « قاسم أمين » هو كتاب « تربية المرأة والحجاب » وهو أهم ماأُلِّفَ وأعمقه أثراً ، ألفه « محمد طلعت حرب » الذي اقترن اسمه فيما بعد ــ وللأسف ــ بشئون الاقتصاد الربوي ، وقد استنكر في كتابه هذا على « قاسم » دعوته ، ودافع عن الحجاب[٨٢] .

ويبدأ الكتاب بمقدمة يثبت فيها المؤلف أن المستعمر الغربي يجاهد بكل الطرق ليغير وضع المرأة المسلمة ، كأنما وكلتهم المرأة للدفاع عنها ، وما ذلك إلا ليثبتوا أن الشريعة الإسلامية قد ظلمتهن ، أما هدفهم البعيد فهو التدخل في شئون المسلمين باسم الإنسانية ، وفرنجة المرأة في المجتمع الشرقي لتنحل مقوماته الاجتماعية ، قال : (إن رفع الحجاب والاختلاط كلاهما أمنية تتمناها أوربة من قديم الزمان لغاية في النفس يدركها كل من وقف على مقاصد أوربة بالعالم الإسلامي) ، وقال أيضاً : (إنه لم يبق حائل يحول دون هدم المجتمع الإسلامي في المشرق لا في مصر وحدها ــ إلا أن يطرأ على المرأة المسلمة التحويل بل الفساد الذي عمَّ الرجال في المشرق) .

وهو يذكر أن الخديو « إسماعيل » حين أراد أن ينفصل بمصر عن الدولة العثمانية وعد ملوك أوربة ــ إن هم أيدوه من أجل تحقيق هدفه ــ أن يبدل أحكام القرآن فيما يتصل بالحياة السياسية والاجتماعية ، فيفصل السياسة عن الدين ، ويطلق

---

(٨١) « قاسم أمين » د.« ماهر حسن فهمي » ص(١٦٤ ــ ١٦٥) .

(٨٢) ولمحمد طلعت حرب كتاب آخر في الرد على « قاسم أمين » هو : « فصل الخطاب في المرأة والحجاب » شن فيه حملة عنيفة على ضلالات قاسم ، ووقفت كثرة الشعب في جانبه ، وأيدته ، فاستُهدف قاسم للإهانة تلو الإهانة (انظر : « تطور النهضة النسائية » ص «٧٠») .

الحرية للنساء ، بحيث يَسِرْنَ في أثر المرأة الغربية ، وينقل إلى مصر معالم المدنية الأوربية .

وذكر أن الحرية كانت دائماً شعار الإسلام فكان أولى بقاسم أن يجعل عنوان كتابه « تربية المرأة » بدلاً من « تحريرها » ، ثم يقول « طلعت حرب » : (ومن عجيب المصادفات أن الذي يقرأ « الرحلة الأصمعية » التي طبعت باللغة التركية سنة ١٨٩٣ في مصر ، يقرأ فيها الاعتراضات التي وجهها الأوربيون إلى مؤلف الرحلة فيما يختص بوضع المرأة المسلمة ، فإذا ماقرأنا « تحرير المرأة » لقاسم أمين وجدناه يردد نفس الاعتراضات ، فهل هذا يرجع إلى توارد خواطر ؟

ويتحدث طلعت حرب في الباب الأول من كتابه عن وظيفة المرأة ، فيقرر أن الأديان[٨٣] جميعاً تنفي مساواة المرأة بالرجل مساواة كاملة ، ويورد النصوص من التوراة والانجيل والقرآن ، التي تؤكد سيادة الرجل وحسن المعاملة والتقدير للمرأة ، ويقرر أن سعادة الأسرة لاتكون بوجود قائدين في بيت واحد ، وإنما تكون بتوجيه الرجل توجيهاً حكيماً .

ثم قال : (إن للمرأة أعمالاً غير ماللرجل ، ليست بأقل أهمية من أعماله ، ولا بالأدنى منها فائدة ، وهي تستغرق معظم زمن المرأة إن لم نقل كله : الرجل يسعى ، ويكد ، ويشقى ، ويتعب ، ويشتغل ليحصل على رزقه ورزق عياله ، وامرأته ترتب له بيته ، وتنظف له فرشه ، وتجهز له أكله ، وتربي له أولاده ، وتلاحظ له خدمه ، وتحفظ عينه عن المحارم ، وهو يسكن إليها ...)[٨٤] .

---

(٨٣) اعلم ــ رحمك الله ــ أنه لايصح إطلاق كلمة « الأديان » ! هكذا مجموعة في سياق التقرير والاحتجاج بها ، لأن الدين واحد هو الإسلام ، الذي أرسل الله به رسله ، وأنزل به كتبه ، قال تعالى : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ (آل عمران : ١٩) ، والشرائع هي التي تختلف من نبي لآخر قال تعالى : ﴿ **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً** ﴾ (المائدة : ٤٨) والله أعلم .

(٨٤) « تربية المرأة والحجاب » ص(١٧) طبعة القاهرة .

وينتقل إلى الباب الثاني فيتناول تربية المرأة ، ويؤكد أن (الشريعة قد حثت على التربية الخلقية التي تضمن إصلاح النفس ، وعمار الكون وضمان السعادتين ، وكان السلف الصالح يُعَوِّدون أبناءهم عليها ، فيشبون وقد تشبعوا بمكارم الأخلاق ، ولم تُوَلِّ الدنيا عنا إلا يوم أهملنا تلك التربية ، ثم دهمتنا المدنية الغربية بما بها من مظاهر خادعة ، فحسبناها منتهى مايدركه الإنسان من الكمال ، فتسابقنا إلى التشبه والتقليد .

فإذا كنا نريد إصلاحاً حقيقياً فلننظر إلى مدنيتنا الإسلامية ، ولنقتبس منها أسس التربية السليمة لكل أفراد المجتمع من بنين وبنات) .

ثم ينتقل إلى أهم نقاط البحث ، وهي مشروعية الحجاب ، فيعرض لقوله تعالى : ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ...** ﴾ وينقل من أحاديث رسول الله ﷺ وسيرة الصحابة رضي الله عنهم أن المقصود ستر الوجه لأنه أعظم زينة للمرأة ، أما ماجاء في قوله تعالى : ﴿ **ولا يبدين زينتهن إلا ماظهر منها** ﴾ فهي الكحل والخضاب ، ثم كيف يمكن الاختلاط مع غض البصر ؟

وإذا كان « قاسم أمين » يرى أن الحجاب خاص بنساء النبي ﷺ ، وأن قوله تعالى : ﴿ **يانساء النبي لستن كأحد من النساء** ﴾ (الأحزاب : ٣٢) فيه معنى التخصيص ، فإن قوله تعالى : ﴿ **ياأيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن** ﴾ (الأحزاب : ٥٩) قد قطع كل شك في وجوب الحجاب ، وقد اعتمد « قاسم » على رأي بعض الفقهاء في إباحة كشف الوجه واليدين والقدمين ، مع أن رأي الفقهاء في هذه الإباحة كان خاصًّا بالصلاة وحدها ، لا بقضية الحجاب والسفور .

على أن من يقول بجواز النظر لوجه المرأة عند أمن الفتنة قد قضى بتحريم ذلك على الإطلاق خصوصاً في هذه الأيام ، حيث نشاهد تبذل الشباب واستهتارهم كل

حين ، فما بالنا لو خلعت المرأة الحجاب ، وأطلقنا لها الحرية ؟

إن الإحصائيات تثبت أن المرأة الشرقية ــ بسبب الحجاب ــ أكثر نساء العالم تعففاً ، ولا نريد أن نمزق ستار العفاف .

وإذا كان « قاسم » يتساءل : لماذا اختص النساء بالاحتجاب والتبرقع دون الرجال ، وكلاهما مأمور بغض الأبصار ؟ ، فالإجابة واضحة ، إذ من المسلم به أن لكل من الزوجين وظيفة اختص بها ، وكانت وظيفة الرجل خارج بيته للسعي على معاشه ، ووظيفة المرأة منزلية داخل البيت وخروجها للضرورة ، فتكليفها بالتبرقع دون الرجل أكثر ملاءمة لظروفها .

أما ماقيل عن علم عائشة رضي الله عنها فهو حجة على قائله ، لأنها كانت محتجبة حجاباً تامًّا بالإجماع ، ولم يمنعها الحجاب من التفقه في أمور الدين والمشاركة في أمور الحياة ، وكذلك كان كل النساء المسلمات اللائي نبغن ، وبلغن درجة من العلم والكمال ، فالحجاب لم يمنع من تحصيل العلم ولا تدريسه ، وإذا كان الحجاب هو المانع من الترقي ، فلِمَ لم يترقَّ كل الرجال ؟

ولو نظرنا إلى المرأة الأوربية ، لوجدنا الأمر يرجع إلى حاجة أوربة للأيدي العاملة بسبب ظروف حياتها ، فخرجت النساء لمساعدة الرجال على الكسب والتعمير ، فلما ابتذلت المرأة هناك أعرض الشباب عن الزواج ، فاضطرت المرأة أن تستمر في العمل لتعيش ، على أن الناظر إلى المرأة الشرقية الآن[٨٥] ، يراها قد خرجت ، وأقبلت على ملاذِّ الدنيا ، وأغرتنا الحضارة الأوربية على التساهل ، وسيسير الزمن بنا ــ باسم الحرية والمدنية ــ حسب التخطيط الذي يدفعنا الأجنبي إليه إلى أن تصبح المرأة الشرقية مثل الأجنبية ، مالم نبادر إلى تقييد تلك الحرية لا إطلاقها ،

(٨٥) طبع الكتاب سنة ١٨٩٩م .

وإلى تحرير الرجل قبل المرأة من الجهالة والفساد .

ويختم « طلعت حرب » كتابه قائلاً : (الحجاب أصل من أصول الأدب ، فيلزم التمسك به ، إلا أن المطلوب أن يكون منطبقاً على ماجاء به الشرع)[٨٦] .

موقف « محمد فريد وجدي » :

ونشر « محمد فريد وجدي » في (المؤيد) و (اللواء) بضع مقالات قال في بعضها :

(إذا أشرنا اليوم بوجوب كشف الوجه واليدين ، فإن سنة التدرج سوف تدفع المرأة إلى خلع العذار للنهاية في الغد القريب كما فعلت المرأة الأوربية ، التي بلغت بها حالة التبذل درجة ضَجَّ منها الأوربيون أنفسهم ، وبدلاً من أن نضرب الأمثلة بالغرب دائماً ، ينبغي أن نولي وجوهنا إلى عظمة مدنيتنا الإسلامية الماضية)[٨٧] .

ويتهكم أحد الكتاب بالدعوة إلى خروج المرأة للعمل ، ويحاول أن يتصور المرأة ، وقد خرجت إلى معترك الحياة تعمل ، فإذا البيوت مقفرة ، والشوارع مزدحمة بالرجال والنساء ، والمحال التجارية وقف بها المتحككون بالنساء البائعات ، أما الزي فخليط عجيب ، امرأة بقبعة ، وأخرى بغيرها ، والمقص قد تحيف الجيوب والذيولَ والأكمام ، والتصقت الملابس بالمرأة ، حتى صارت كبعض جسمها ، ثم يتساءل قائلاً : (أهذا مانريده ؟ إن مانريده حقاً هو تربية المرأة قبل كل شيء)[٨٨] .

---

(٨٦) السابق ص(١٠٥) .

(٨٧) « قاسم أمين » د.« ماهر حسن فهمي » ص(١٦٢) .

(٨٨) السابق ص(١٦٣) .

موقف « مصطفى كامل » (١٨٧٤ ـــ ١٩٠٨م) :

كان للكتاب دويٌّ شديد في الأوساط الوطنية ، لأنه كان بمثابة تحدٍّ صريح للرأي الإسلامي العام ، وهجوم سافر ضد الإسلام ، لذلك لم يكن عجباً أن يقف الحزب الوطني المصري ، أو بمعنى آخر أن يقف « مصطفى كامل » من هذه الحركة موقف المقاومة والعناد ، إذ تحسس وراءها الأصابع البريطانية ، فربط بين هذه الحركة التي يديرها ذلك النادي الذي جمع أذناب الاستعمار وبين الإنكليز على أنها وسيلة من وسائله المتلونة في القضاء على مقومات الأمة ، فسارع إلى مقاومة هذه الحركة الخائنة وتحذير الأمة منها ، فأشار إليها في أول اجتماع عام عقده عقب صدور ذلك الكتاب في الخامس من شعبان سنة (١٣١٧هـ) ، الموافق الثامن عشر من سبتمبر (١٨٩٩م) ، حيث قال :

(إني لست ممن يرون أن تربية البنات يجب أن تكون على المباديء الأوربية ، فإن في ذلك خطراً كبيراً على مستقبل الأمة ، فنحن مصريون[*] ويجب أن نبقى كذلك ، ولكل أمة مدنية خاصة بها ، فلا يليق بنا أن نكون قردة مقلدين للأجانب تقليداً أعمى ، بل يجب أن نحافظ على الحسن من أخلاقنا ، ولا نأخذ عن الغرب إلا فضائله ، فالحجاب في الشرق عصمة وأي عصمة ، فحافظوا عليه في نسائكم وبناتكم ، وعلموهن التعليم الصحيح ، وإن أساس التربية التي بدونه تكون ضعيفة ركيكة غير نافعة ... هو تعليم الدين)[٨٩] اهـ .

وقد بلغ « بمصطفى كامل » الاهتمام بمقاومة هذه الحركة المسمومة إلى الحد الذي جعله يفتح صدر صحيفة (اللواء) منذ أول ظهورها سنة (١٩٠٠م) لكل طاعن على « قاسم أمين » وأفكاره ، فكانت « اللواء » ـــ كما يقول الدكتور

(*) الواجب أن يقول : (فنحن مسلمون) ، وإلا فما قيمة المصريين أو غيرهم بدون الإسلام ؟

(٨٩) « الحركات النسائية » ص(١٦ ـــ ١٧) .

« محمد حسين هيكل » ــ : (خصماً لدوداً لقاسمٍ وأفكاره ، وكانت ميداناً لأشد المطاعن عليه)[٩٠] اهـ .

وكتب (مصطفى كامل) في (اللواء) (٣١ يناير ١٩٠١) يؤكد على (وجوب الالتفات إلى تربية النساء فهي دعوة يوافق عليها كل مثقفي الأمة ، أما الحرية للمرأة فلا محل للحديث عنها الآن ، وعملية التطور الطبيعي تسير سيرها المحترم ، وفرق بين التطور والتطوير القسري ، الذي لايُؤْمَنُ معه من سوء العاقبة ، فإن الرجل منا أهون عليه أن يموت ؛ من أن يرى من أهله أو من بيته امرأة فاسدة ، ولو كانت بهجة العلم وحليته) .

ثم يخدش قاسماً ــ وما أصاب ــ فيقول : « ولست أدري إذا كان هذا الشعور شعوراً طبيعياً عند كل الرجال أو منشؤه الميراث الذي يحمله كل منا في دمه من أخلاق آبائه وأجداده ، وسواء كان هذا أو ذاك فإن الحرية التي تقتل العصمة ، شرٌّ عندي من الحجاب القاتل للرذائل)[٩١] .

أثر كتاب « تحرير المرأة » في العراق والشام :

واجه الكتاب هناك معارضة عنيفة لا تقل عن التي واجهها في مصر ، وأعلن المعارضون لقاسم أن الدعوة إلى خروج المرأة المسلمة اقتداءاً بالغربية ، دعوة لا تستند إلى حجة مقبولة ، لأن الغربية لم تناد بالخروج إلى المجتمعات وإلى الحرية المطلقة ، وإنما الرجال هناك هم الذين دفعوها إلى العمل تخلصاً منها ، وطمعاً في الانتفاع بتعبها ، فكانت النتيجة أن استُدْرِجَتْ إلى مواقف لم تأمن معها من الزلل ، وفقدت بيتها ،

---

(٩٠) « تراجم مصرية وغربية » للدكتور محمد حسين هيكل باشا ص(١٤٢) .

(٩١) « قاسم أمين » تأليف د. ماهر حسن فهمي ص(١٦٠) ، ومما يلزم التنبيه إليه أن هذا الأُسلوب المتضمن للهمز واللمز يأباه الإسلام الذي يَعلو ولا يُعلى ، والذي يعد الدعوة القومية ، والعصبية الوطنية جاهلية خبيثة منتنة .

وفقدت أنوثتها ، وإذا كان التاريخ يستفظع وأد بعض رعاع العرب لبناتهم تخلصاً من العار ، فكم يكون استفظاعه لحياة كثيرات من الفتيات في هذه المدنية التي يود البعض أن نقتدي بها ؟!

وثار علماء الدين في الشام ثورة عنيفة ضد « قاسم أمين » فأعلنوا أن دعاة السفور هم دعاة فساد ، لأنه يخالف ما أمر به الدين ، ولأن السفور يقود الناس حتماً إلى المجون وهدم القيم ، وبذلك تنحل كل الروابط الاجتماعية[٩٢] .

الإنكليز يترجمون الكتاب وينشرونه :

وقد كتب « مصطفى كامل » في (اللواء) بتاريخ (٩ فبراير سنة ١٩٠١م) يقول : (هذا ، وقد انتشر خبر كتاب « تحرير المرأة » في جهات الهند ، واهتم الإنكليز بترجمته وبث قضاياه ، وإذاعة مسائله اهتماماً عظيماً ، لما وراء العمل به من فائدة لهم) اهـ .

من مواقف الشعراء :

وكان للحركة صدى عميق في نفوس الأدباء والشعراء[٩٣] ، وهذا (أحمد محرم)[٩٤] الذي أعجب به « مصطفى كامل » وطالما أشاد به وبشعره على صفحات (اللواء) يقول مستنكراً دعوة « قاسم أمين » :

أغرَّكِ ياأسماءُ ماظن قاسمُ !؟ أقيمي وراء الخِدر[٩٥] فالمرء واهمُ

---

(٩٢) السابق ص(١٦٣ ــ ١٦٤) .

(٩٣) كان أكثر شعراء تلك الفترة من أهل الرأى والفكر ، ولم يكونوا مجرد نظامين .

(٩٤) « أحمد محرم » (١٨٧١ ــ ١٩٤٥) عده الأدباء في الطبقة الأولى من شعراء جيله ، وسلكوه في صف شوقي وحافظ ، وطبع شعره الإسلامي بعنوان (الإلياذة الإسلامية) سنة ١٩٦٣ .

(٩٥) الخدر : ستر يمد للجارية في ناحية البيت ، وجارية مخدَّرة ومخدورة إذا ألزمت الخدور ، وانظر « لسان العرب » (٥/٣١٢ ــ ٣١٥) .

تضيقين ذرعاً بالحجاب وما به | سوى ما جنت تلك الرؤى والمزاعم
سلام على الأخلاق في الشرق كله | إذا ماااستبيحت في الخدور الكرائم
أقاسم لا تقذف بجيشك تبتغي | بقومك والإسلامِ ما الله عالم
لنا من بناء الأولين بقية | تلوذ بها أعراضنا والمحارمُ
أسائل نفسي إذ دَلَفْتَ[96] تريدها | أأنت من البانين أم أنت هادم ؟
ولولا اللواتي أنت تبكي مُصابَها | لما قام للأخلاق في مِصْرَ قائمُ
نبذت إلينا بالكتاب[97] كأنما | صحائفه مما حَمَلْنَ ملاحِمُ[98]
ففي كل سطر منه حتفٌ مفاجيءٌ | وفي كل حرف منه جيشٌ مهاجِمُ

إلى أن يقول :

لنا في كتاب الله مجدٌ مُؤَثَّلٌ[99] | ومُلْك على الحِدْثانِ[100] والدهر دائم
إذا نحن شئنا زلزل الأرضَ نابُنا | ودامت لنا أقطارها والعواصمُ

* * *

همِمنا بربات الحجال[101] نريدُها | أقاطيع ترعى العيش وهي سوائمُ
وإنَّ امرءاً يُلقي بليل نعاجه | إلى حيث تَسْتَنُّ الذئابُ لظالمُ
وكُلُّ حياة تُثْلِمُ العِرْضَ سُبَّةٌ | ولا كحياة جَلَّلتْها المآثمُ
أتأتي الثنايا الغر والطُّرَرُ[102] العلى | بما عجزت عنه اللحى والعمائم ؟

---

(96) دلفت : أي تقدَّمت .

(97) يشير إلى كتاب « تحرير المرأة » .

(98) جمع ملحمة : وهي الوقْعة العظيمة القتل .

(99) أي الحسيب الأصيل العظيم الشريف .

(100) الحِدْثان : النُّوَب .

(101) الحَجْل بفتح الحاء وكسرها : الخَلْخَال .

(102) الطُّرر : جمع طُرَّة : جانب الثوب الذي لا هُدْبَ له، وطرف كل شيء .

فلا ارتفعت سفن الجواء بصاعد إذا حلقت فوق النسور الحمائم
عفا الله عن قوم تمادت ظنونُهُمْ فلا النهج مأمون ولا الرأى حازم
ألا إن بالإسلام داءً مخامراً وإن كتاب الله للداء حاسم[(١٠٣)]

* * *

وهاجم الشاعر العراقي « البناء » السفوريين، وخاطب المرأة قائلاً :

وجـوه الغانيـات بلا نقــاب تصيد الصيد في شَرَكِ العيون
إذا برزت فتاة الخِدْرِ حسرى تقود ذوى العقول إلى الجنون

وهذا الشاعِر « جواد الشبيبى » يقول مستنكراً الدعوة الأثيمة :

منـع السفـورَ كتابُنـا ونبيُّنــا فاستنطقـــى الآثارَ والآياتِ
تلك الوجوه هي الرياض بها ازدهت للناظريـــن شقائـــق الوجنـــات
كانت تكتم في البراقع خفية من أن تمس حصانة الخَفِرات[(١٠٤)]
واليوم فَتَّحَها الصبا فتساقطت بعواطـــف الألحاظ والقبـــلات
صونى جمالك بالبراقـــع إنها ستر الحسان ومظهر الحسنات
وضعى الصدار على الترائب إنه حق عليك فحق نهدك نات[(*)]
وتماثلى في البيت صورة دمية مكنونة الأعضاء في الحبرات[(١٠٥)]

وفي قصيدة للأزدى يعارض بها « الرصافى »، ويخاطب بنت بغداد (كريمة الزوراء)، ويحذرها من ضلال السفوريين، ويبصرها بعواقب مسلكهم الوخيم، يقول :

---

(١٠٣) ديوان محرم (٢/٦٣ ــ ٦٥) الطبعة الأولى (١٣٣٨هـ ــ ١٩٢٠م) ــ مطبعة الفتوح بدمنهور .

(١٠٤) امرأة خَفِرة : أي شديدة الحياء .

(*) كذا بالأصل !

(١٠٥) انظر « قاسم أمين » للدكتور « ماهر حسن فهمي » ص(١٧٣) .

أولم يروا أن الفتاة بطبعها كالماء لم يُحفظ بغير إناء
من يكفل الفتيات بعد ظهورها مما يجيش بخاطر السفهاء ؟
ومن الذي ينهى الفتى بشبابه عن خدع كل خريدة حسناء ؟

إلى أن يقول :

نص الكتاب على الحجاب ولم يبح للمسلمين تبرج العذراء
ماذا يريبك من حجاب ساترٍ جيدَ المهاة[106] وطلعة الذلفاء[107]
ماذا يريبك من إزارٍ مانع وزر الفؤاد وضلة الأهواء
ما في الحجاب سوى الحياء فهل من التهذيب أن يهتكن ستر حياء
هل في مجالسة الفتاة سوى الهوى لو أصدقتك ضمائر الجلساء
شيد مدارسهن وارفع مستوى أخلاقهن لصالح الأبناء
أسفينة الوطن العزيز تبصرى بالقعر لا يَغْررك سطح الماء[108]

وهذا « أديب التقى » يحذر من السفور كذريعة إلى الخلاعة والدمار الاجتماعي :

كيف ترضى بأن ترى حاسرات يتملى وجوهها الفجَّار
واتخذن الخلاعة اليوم خلقا هو للشعب لو أفاق دمار[109]

وفي السودان هاجم الشيخ « حسيب على حسيب » بعنف دعاة السفور فقال :

دَعُوا في خِدْرِها ذات الدلالِ فقد أرهقتموها بالجدالِ
رأيت شعورَها الحسَّاس مضنَى على هذا الجمود عن المعالى
تذوب وقد تناظرتم حياء بفحش اللفظ أو هُجْرِ المقال
ويعلو خَدَّها خَفَرٌ ينادى ألا يا للنساء من الرجال

---

(١٠٦) الجيد ـــ بالكسر : العنق أو مُقَدَّمُه، و (المهاة) : الشمس، والبقرة الوحشية .

(١٠٧) الذَّلَف : صِغَر الأنف .

(١٠٨) « الأدب العصري » (٥٦/٢) طبعة القاهرة (١٩٢٣) .

(١٠٩) « الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام » ص(١٤٤) طبعة القاهرة (١٩٥٨) .

زعمتم تعشقون لها صلاحاً فظنى أن ذا عشق الجمال
ومسألة « السفور » غَدَتْ قديماً لدى الكُتَّاب مشكلة النضال
وما أحد لها يدعو فماذا يريد الناس من قيل وقال
أحباً في مناجاة الغواني تُرى .. أم ذاك زهداً في المعالي
بلى فالعلم عندهم كريم ولكن المُتَيَّمَ غيرُ سال
دعوها فهي تؤلمها كثيراً سهام المصلحين بلا اعتدال
عجبت لحلمهم في كل خطب وإن ذُكر البناتُ دَعَوْا نَزَال

وقال آخر :

زعموهن بالحجاب عن العلـ ـم ونور العرفان محتجباتِ
بنت مصر كالشمس يحجبها الليل وراء الآفاق والظلمات
وهي في أفقها ضياء ونور ساطع في بدورها النيراتِ
أوهِيَ المسك ينفذ العَرْفُ منه من وراء الأستار والحجرات

انتهى من « التيار التراثى العربي الحديث » د . سعد دعيبس ص (١٤٨) .

الخطوة الثالثة :

كتاب « المرأة الجديدة »

لم يلبث مؤلف (تحرير المرأة) حين واجه هذه المعارضة التي أحرجته كثيراً أن « أسفر » عن وجهه الحقيقي ، وخلع عنه ثوب الحياء ، وقناع التدين ، وكشف في جرأة وصراحة عن أهدافه المغرضة في كتاب ظهر في العام التالي ، وهو كتاب (المرأة الجديدة) الذي بدأ فيه أثر الحضارة الغربية واضحاً ، فالتزم فيه مناهج البحث الأوربية الحديثة ، التي ترفض كل المُسَلَّمات والعقائد السابقة ، سواء منها ما جاء من طريق الدين ، وما جاء من غير طريقه ، ولا تقبل إلا ما يقوم عليه دليل من التجربة أو الواقع

على حسب المنهج الذي يسلكه باحثو الاجتماع الأوروبيون، وهو ما يسمونه بـ (المنهج العلمي)[110]، فتراه يعتمد على آراء مفكري الغرب، ويصطنع أساليبهم في الإحصاء وفي الدراسات النفسية والاجتماعية والتجريبية.

وبينما كنت تراه هادئاً في كتابه الأول، يحوم حول النصوص الإسلامية، ويمتص من رحيقها، لتعضيد مواقفه في المطالبة بحقوق المرأة، انقلب في الكتاب الثاني، يسلط حمم غضبه، ويستعمل عبارات قاسية في التعبير عن رأيه، عبارات لا تقرها المرأة ذاتها، فهو لا يقبل ــ بزعمه ــ « حق ملكية الرجال للنساء »، ويرى ترك حرية النساء للنساء حتى ولو أدى الأمر إلى « إلغاء نظام الزواج، حتى تكون العلاقات بين الرجل والمرأة حرة، لا تخضع لنظام، ولا يحددها قانون »[111]..

و « المرأة الجديدة » التي قصدها « قاسم أمين » هي المرأة الأوربية التي أراد من المصرية أن تتحول إليها، وتتخذها مثلاً أعلى، قال « قاسم » : (هذا التحول هو كل ما نقصد، وغاية ما نسعى إليه هو أن تصل المرأة المصرية إلى هذا المقام الرفيع، وأن تخطو هذه الخطوة على سلم الكمال، وأن تكون مثلها تحرراً، فالبنات في سن العشرين يتركن عائلاتهن، ويسافرن من أمريكا إلى أبعد مكان في الأرض وحدهن، ويقضين الشهور والأعوام متغيبات في السياحة، متنقلات من بلد إلى أخرى، ولم يخطر

(١١٠) « المرأة الجديدة » ص(٧٥)، ومما ينبغي التنبه له أن هذا الذي يسميه علماً ليس علماً بالمعنى الصحيح للكلمة، إلا فيما يتصل بالفروع التجريبية كالطبيعة والكيمياء والهندسة والطب، أما ما يتصل منه بالنفس والاجتماع والأخلاق فإنه لا يزيد على أنه فروض لحل بعض المشكلات، ونظريات لتعليل ما غاب عن الحس، ولذلك فهو دائماً موضع أخذ ورد حتى بين دارسي الغرب، ولا ننسى أن هذه الدراسات النفسية والاجتماعية قد أصبحت موجهة، وتسخر لخدمة المذاهب والأحزاب السياسية المختلفة، وأن بعضها يتذرع باسم (العلم) ليهدم الدين والخلق، وبفرض السياسات الاستعمارية، انظر: «الاتجاهات الوطنية» (١ / ٢٨٣).

(١١١) « مبادىء السياسة والأدب والاجتماع » لأحمد لطفي السيد ص(١٧٣) ــ كتاب الهلال ١٣٨٣هـ ــ ١٩٦٣م.

على بال أحد من أقاربهن أن وحدتهن تعرضهن إلى خطر ما ، وكان من تحررها أن يكون لها أصحاب غير أصحاب الزوج ، والرجل يرى أن زوجته لها أن تميل إلى ما يوافق ذوقها وعقلها وإحساسها ، وأن تعيش بالطريقة التي تراها مستحسنة في نظرها)[١١٢] .

وطلب قاسم أمين من المصريين أن يتخلصوا مما وقر في أنفسهم من أن عاداتهم هي أحسن العادات ، وأن ما سواها لا يستحق الالتفات ، وقال : (إن طالب الحقيقة لا يجب أن يجرى في إصدار أحكامه على هذا الضرب من التساهل ، بل يجب أن يعود نفسه على أن يجرى نقده للحوادث الاجتماعية على أسلوب علمي) ص ٧٥ ، ويقول في موضع آخر : (إن التشريح الفسيولوجي والتجربة في البلاد التي منحت المرأة حريتها قد أثبتت أن المرأة مساوية للرجل في الملَكات) ، ويستشهد في معرض كلامه عن أثر حرارة الجو في إثارة الشهوة بكلام كاتب إيطالي يقول : (إن العفة تكتسب بمنح الحرية للمرأة ، وإن اختلاف الأجواء لا أثر له في ذلك) ، ثم يقول في موضع آخر : (لما تخلصت المرأة المصرية من الاستعباد رأت نفسها في أول الأمر في حيرة لا تدري معها ماذا تصنع بحريتها الجديدة ، وهكذا يكون الحال بالنسبة لحرية النساء : أول جيل يظهر فيه حرية المرأة تكثر الشكوى منها ، ويظن الناس أن بلاءً عظيماً قد حل بهم ، لأن المرأة تكون في دور التمرين على الحرية ، ومع مرور الزمن تتعود المرأة على استعمال حريتها ، وتشعر بواجباتها شيئاً فشيئاً ، وترتقي ملكاتها العقلية والأدبية ، وكلما ظهر عيب في أخلاقها يداوي بالتربية ، حتى تصير إنساناً شاعراً بنفسه)[١١٣] ، ويقول في موضع آخر : (إننا قد ورثنا الصورة التي كوناها عن المرأة من العرب الذين قامت حياتهم ــ حسب زعمه ــ على الغزو والنهب ، ومن ثم لم

---

(١١٢) « آثار باحثة البادية » ص(٢٧٤) .

(١١٣) « المرأة الجديدة » ص (٧٠ ــ ٧١) .

يكن فيها للمرأة نصيب تشارك به في الدولة، ثم لم يكن لها نصيب في تربية الولد، لأن تربيته كانت مقصورة على تغذية جسمه، ليشب مقاتلاً لا عالماً فاضلاً، وصورة المرأة هذه التي ورثها المسلمون ــ حسب زعمه ــ عن العرب قد تكون صحيحة بالقياس إلى الماضي، ولكنها مزورة إذا نظرنا إلى الحال والمستقبل)اهـ.

وكان معارضو « قاسم أمين » يرون أن نهضتنا يجب أن تعتمد على تراثنا القديم وعلى حضارتنا الإسلامية وحدها، فقام هو بالرد على ذلك بأن (الحضارة الإسلامية قامت على دعامتين : الأساس الديني الذي كوَّن من القبائل العربية أمة واحدة، والأساس العلمي الذي ارتفعت به الأمة الإسلامية وآدابها)، ثم يزعم أن العلم وقتذاك كان ضعيفاً في أول نشأته، وكانت أصوله ضرباً من الظنون التي لم تؤيدها التجربة، ولذلك كانت قوة العلم ضعيفة بجانب قوة الدين، فتغلب الفقهاء على رجال العلم، ووضعوهم تحت رقابتهم، وزجوا بأنفسهم في المسائل العلمية، ينتقدونها ويفتون بمخالفتها لنصوص القرآن والحديث التي يؤولونها، وبذلك حملوا الناس « حسب زعمه » على إساءة الظن بالعلم، فنفروا منه وهجروه، وانتهى بهم الأمر إلى الاعتقاد بأن العلوم جميعاً باطلة إلا العلوم الدينية، بل قالوا في العلوم الدينية نفسها : إنها يجب أن تقف عند حَدٍّ لا يجوز لأحد أن يتجازوه، ثم تقدمت العلوم، وظهرت المكتشفات الحديثة، واستطاع العلم أن يشيد بناءاً لا يمكن لعاقل أن يفكر في هدمه، وتغلب رجال العلم على رجال الدين)[١١٤]، وينتهي « قاسم أمين » من هذا العرض

---

(١١٤) إن محاولة « قاسم أمين » إلقاء العداوة بين العلم والدين ما هي إلا مظهر من مظاهر التبعية العمياء للغرب حين سادت العداوة بين النصرانية وبين العلوم التجريبية، وفي سحب هذا الحكم على الإسلام والمدنية الإسلامية مغالطة تكشف عن جهل بالواقع التاريخي من جهة، وبحقائق الدين والعلم من جهة أخرى ــ راجع كتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) للشيخ أبي الحسن الندوي، وانظر أيضاً (أضواء البيان) للشنقيطي (٣/٣٩٦ ــ ٤٠٠)، وانظر بحث (فصل الدين عن السياسة ضلالة مستوردة) للأستاذ يوسف العظم، وانظر « بيان الهدى من الضلال » للشيخ إبراهيم بن عبد العزيز السويح، ومما =

إلى أن التمدن الإسلامي قد بدأ وانتهى قبل أن يكشف الغطاء عن أصول العلم، فكيف يمكن أن نعتقد أن هذا التمدن كان نموذج الكمال البشري ؟ .. ثم يبين أن كثيراً من ظواهر التمدن الإسلامي لا يمكن أن تدخل في نظام معيشتنا الاجتماعية الحالية، ويضرب الأمثلة من نظم هذا التمدن في الحكم، وهي في رأيه أقل من المستوى الذي بلغه اليونان والرومان في كفالة الحريات(١١٥)، كما يضرب أمثلة من نظام الأسرة ليبين أنه كان غاية في الانحلال، وأن الفرق واسع بين وبين النظم والقوانين التي وضعها الأوربيون لتأكيد روابط الأسرة)، ويختم ذلك متسائلاً : (إذا كانت هذه حالهم، فما الذي يطلب منا أن نستعيره منها ؟ .. وأي شيء منها يصلح لتحسين حالنا اليوم ؟) ثم يقول : (متى تقرر أن المدينة الإسلامية هي غير ما هو راسخ في مخيلة الكتاب الذين وصفوها بما يحبون أن تكون عليه، لا بما كانت في الحقيقة عليه، وثبت أنها كانت ناقصة من وجوه كثيرة، فسيان عندنا بعد ذلك أن احتجاب المرأة كان من أصولها أو لم يكن، وسواء صح أن النساء في أزمان خلافة بغداد والأندلس كن يحضرن مجالس الرجال أو لم يصح، فقد صح أن الحجاب هو عادة لا يليق استعمالها في عصرنا) اهـ(١١٦) .

= يجدر التنبيه إليه أن مصطلح « رجل الدين » مصطلح دخيل على الفهم الإسلامي الصحيح، بل كل مسلم ينبغي أن يكون رجل دين عليه واجبات تجاه دينه لابد من تأديتها حتى يستحق وصف المسلم .

(١١٥) هذه المقارنة بين الحضارة الإسلامية والحضارة الرومانية وترجيح كفة الأخيرة تبين أن المعين الذي كان يستمد منه قاسم أمين وأضرابه هو كتابات (المتحررين) في أوربا الذين كانوا يحقرون الحضارة المسيحية، ويمجدون الحضارة اليونانية واللاتينية الوثنية السابقة على المسيحية، وما هذه المقارنة الغبية إلا صورة جديدة تدل على التخلف الفكري والتقليد الأعمى الذي كان يعاني منه ذلك المفتون بحضارة الغرب، الذي نلاحظ من كتاباته كم كان شامخ الأنف متغطرساً مع مواطنيه، متعالياً على أمته، وفي الوقت ذاته مهدور الكرامة مطأطأ الرأس ذليلاً أمام أعداء دينه وأمته، قد وقف حياته على أن يجذب بمنهاجه السقيم أعناقنا نحن المسلمين وجباهنا ـــ نحن الموحدين ـــ لتسقر أمام أقدام أعدائنا اليهود والصليبيين خاشعة خاضعة .

(١١٦) « المرأة الجديدة » ص(١٨٣)، ويبدو أن الجذرية في كتابه الثاني هذا لم تكن رد فعل للهجوم القاسي من =

ثم يستطرد (عدو المرأة المسلمة) قائلاً : (نحن لا نستغرب أن المدنية الإسلامية أخطأت في فهم طبيعة المرأة وتقدير شأنها ، فليس خطؤها في ذلك أكبر من خطئها في كثير من الأمور الأخرى ..) ويقول : (.. والذي أراه أن تمسكنا بالماضي إلى هذا الحد هو من الأهواء التي يجب أن ننهض جميعاً لمحاربتها ، لأنه ميل إلى التدنى والتقهقر .. هذا هو الداء الذي يلزم أن نبادر إلى علاجه ، وليس له من دواء إلا أننا نربي أولادنا على أن يعرفوا شئون المدنية الغربية ، ويقفوا على أصولها وفروعها وآثارها ، إذا أتى هذا الحين ـــ ونرجو أن لا يكون بعيداً ـــ انجلت الحقيقة أمام عيوننا ساطعة سطوع الشمس ، وعرفنا قيمة التمدن الغربي ، وتيقنا أن من المستحيل أن يتم إصلاح ما في أحوالنا إذا لم يكن مؤسساً على العلوم العصرية الحديثة ، وإن أحوال الإنسان مهما اختلفت ، وسواء كانت مادية أو أدبية ، خاضعة لسلطان العلم ، لهذا نرى أن الأمم المتمدنة على اختلافها في الجنس واللغة والوطن والدين متشابهة تشابهاً عظيماً في شكل حكومتها وإدارتها ومحاكمها ونظام عائلتها وطرق تربيتها ولغاتها[١١٧] وكتابتها ومبانيها

= أوساط العلماء الأزهريين ، وإنما كان قاسم أمين قد أعد أصول الكتابين في ذهنه قبل نشرهما ، وخطط لإخراجهما بهذه الصورة ، وقاسم أمين نفسه كان يؤمن بطريقة غرس الأفكار بالتدريج ، فقد قال في الصفحات الأولى من « تحرير المرأة » : (إني لست ممن يطمع في تحقيق آماله في وقت قريب ، لأن تحويل النفوس إلى وجهة الكمال في شئونها لا يسهل تحقيقه ، وإنما يظهر أثر العاملين فيه ببطء شديد في أثناء حركته الخفية ، وكل تغيير يحدث في أمة من الأمم ، وتبدو ثمراته في أحوالها ، فهو ليس بالأمر البسيط ، وإنما هو مركب من ضروب من التغيير كثيرة ، تحصل بالتدريج في نفس كل فرد ، شيئاً فشيئاً ، ثم تسرى من الأفراد إلى مجموع الأمة ، فيُحْدِثُ التغيير في حال ذلك المجموع ، نشأة أخرى للأمة) اهـ من « تحرير المرأة » ص(٢ ، ٣) . وهذا يوضح أن قاسماً كان يضمر في نفسه شيئاً لم يشأ أن يعلنه في هذا الكتاب ، حتى لا تسقط كل جهوده ، فأبرزه في كتابه الثاني « المرأة الجديدة » التي كانت ـــ بالفعل ـــ امرأة « جديدة » مغايرة تماماً لتلك التي رأيناها في كتابه الأول « تحرير المرأة » .

فالحاصل أن كل ما يمكن أن يكون تركه هجوم شيوخ الأزهر من أثر هو حدة الكلمات والعبارات ، لا جوهر الفكر ذاته ـــ والله تعالى أعلم ـــ انظر « المؤامرة على المرأة المسلمة » ص(٦٥ ، ٧٨) .

(١١٧) من المعروف أن قاسم أمين كان يدعو إلى ثورة في لغة الأدب وخطته في ذلك تشبه ثورته الاجتماعية ، =

وطرقها، بل في كثير من العادات البسيطة كالملبس والتحية والأكل هذا هو الذي جعلنا نضرب الأمثال بالأوربين، ونشيد بتقليدهم، وحملنا على أن نستلفت الأنظار إلى المرأة الأوربية)اهـ[١١٨] .

بعض ردود فعل الكتاب :

موقف « مصطفى كامل » :

تصدى « مصطفى كامل » من جديد « لقاسم أمين »، وكتب في (اللواء) بتاريخ ١٩٠١/٢/٩م معلقاً على كتاب (المرأة الجديدة) : (أخرجه أخيراً قاسم أمين ليدعم به أمر كتابه الأول، ويفتح به آفاقاً جديدة لتحلل المسلمين من دينهم وأخلاقهم)اهـ .

وحكى « مصطفى كامل » كيف أن سلطان « ملديفى » لما بلغه خبر الكتاب، وسئل عن رأيه في هذه الاتجاهات قال : (**أما تعليم النساء المسلمات فقد أصبح من المسائل الحيوية للإسلام والمسلمين، ولكنه لو مال عن طريق الشريعة الغراء إلى خطة مدنية الغرب الغبراء، كان معولاً لهدم أركان الإسلام، وفأساً لفتح القبور لأبنائه، ودَسِّهم فيها وهم أحياء، أما رفع الحجاب فلا أرضاه لنسائي وبلادي، وأما المرأة وحق طلاق زوجها فدعوة لا تصدر من معترِف بقول الله في كتابه : ﴿ الرجال**

= فننسلخ من لغة القرآن، ونكتب آدابنا بلهجاتنا العامية على نحو ما انسخلت اللغات الأوربية الحديثة من أمِّها اللاتينية، ونعبر في خطنا عن الحركات بحروف تدخل في بنية الكلمة على طريقة الكتابة بالحروف اللاتينية ــ (انظر « الأعمال الكاملة » ١٥٧/١ ــ ١٥٨) ولا يخفى ما في هذا « التكتيك الخبيث » من خدمة عظيمة لأعداء الإسلام تشير بأصبع الاتهام من جديدة إلى « قاسم أمين » .

(١١٨) « المرأة الجديدة » ص(١٨٥ ــ ١٨٦) .

قوامون على النساء ﴾النساء (٣٤) ، فنسأل الله السلامة)اهـ[١١٩] .

وأفسح « مصطفى كامل » لعلماء المسلمين المجال في جريدة اللواء ليتصدوا لهذه الدعوة الاستعمارية ، وليبينوا حكم الإسلام فيها وفي أصحابها ، (وكان من الكُتَّاب الذين نشرت لهم « اللواء » مقالات تعيب على قاسم أمين وذيوله خصومة الحجاب ، وتجاوز ذلك إلى تحرر يسيء إلى حياة الأمة الأستاذ « محمود سلامة » الأديب المعروف)[١٢٠] .

ومن البحوث التاريخية التي نشرها « اللواء » أيضاً ذلك البحث الذي وضعه قاضي قضاة مصر[١٢١] السيد عبد الله جمال الدين أفندي رحمه الله ، ونشرته له « اللواء » في عدديها رقم (٤٥٦ ، ٤٥٧) بتاريخ (٢٥ ، ٢٦ من ذي الحجة سنة ١٣١٨هـ ، أي في أواخر سنة ١٩٠٠م) ، وقد استغرق هذا البحث من كل عدد الصفحة الأولى كاملة ، وثلث الصفحة الثانية[١٢٢] .

وبما أن هذه الحركة كانت قد نشأت في بيئة وطيدة الصلة بالاحتلال البريطاني ، معادية في نفس الوقت لحاكم البلاد الرسمي (الخديوى) ، فكان من الطبيعي أن يقف منها الخديوى موقف العداء .. أولاً : لمنافاتها للإسلام في وقت كان الحكام والأمراء يفاخرون بالحرص عليه ، وثانياً : لصلتها بالاحتلال الذي يعمل على حشد القوى المناصرة له ، لمناهضة الخديوى ، والحد من سلطانه ، وقد أبرز « مصطفى كامل » موقف الخديوى « عباس حلمي » من هذه الحركة في اللواء بتاريخ (٢٢ أبريل سنة

---

(١١٩) « الحركات النسائية في الشرق » ص(١٨) .

(١٢٠) انظر « تطور النهضة النسائية » ص(٥٨) .

(١٢١) كره بعض العلماء هذا اللقب لشبهه بلقب « شاهنشاه » أي ملك الأملاك المذموم في السنة الصحيحة ، وذلك قوله ﷺ : (إن أخنع اسم عند الله تعالى رجل تسمى ملك الأملاك) متفق عليه .

(١٢٢) وقد طبع حديثاً في كتيب بعنوان (حجاب المرأة العفة والأمانة والحياء) طبع مكتبة التراث الإسلامي (١٤٠٢هـ — ١٩٨٢م) .

١٩٠١م) بعنوان : (رأى الجناب العالي في مسألة الحجاب) وقد جاء فيه ما نصه :

(يرى الجناب العالي حفظه الله في مسألة الحجاب وإطلاق حرية النساء، ما يراه الشرع الشريف ويأمر به، وقد عرف رأى جنابه في هذا الشأن بأمرين :

الأول : أنه أبى قبول كتاب (المرأة الجديدة) عندما ذهب « قاسم أمين » في الأيام الأخيرة إلى المعية السنية، والتمس تقديمه إلى سموه .

الثاني : أنه قبل كتاب (الاحتجاب) الذي رفعه إليه يوم الجمعة الماضي حضره الأستاذ الفاضل الشيخ عبد الله نقيب الأشراف برودس وقريب مؤلف الكتاب عبد الله جمال الدين أفندي رحمه الله، وتقبله حفظه الله بكل ارتياح وانشراح، وأعرب عن عظيم امتنانه من نشره حتى ينتفع به المسلمون، ويرشدهم إلى الحق والصواب) اهـ .

هذا ولم يقف الأمر بالخديوي حيال « قاسم أمين » عند هذا الحد، بل لقد أصدر أمراً بمنعه من دخول القصر في أي مناسبة، مع أنه مستشار(١٢٣) في الدولة، وذلك أنصع في الدلالة على استنكار الخديوي لهذه الحركة الأثيمة(١٢٤) .

---

(١٢٣) درس « قاسم أمين » الحقوق في فرنسا، وعاد إلى مصر سنة ١٨٨٥م، فتعين وكيلاً للنائب العمومي في محكمة مصر المختلطة، وما زال يرتقي حتى صار مستشاراً في الاستئناف إلى أن مات بالسكتة في ليلة ٢٣ أبريل ١٩٠٨م وهو في الثالثة والأربعين من عمره، وقد زعم الصحافي « مصطفى أمين » أنه لم يمت موتاً طبيعياً ولكنه انتحر، وذكر سبب ذلك في مقالة نشرت بجريدة المساء (الخميس ٤/ ٨/ ١٩٨٣) بعنوان « هل انتحر محرر المرأة بسبب امرأة » .

(١٢٤) ومن المواقف (الملكية) النادرة ما روته وصيفة « الملكة نازلي » عن شدة معاملة « الملك فؤاد » لها، قالت : [وفي السبع عشرة سنة التي عاشها الملك مع الملكة لم يسمح لها بالسفر إلى أوربا سوى مرة واحدة عندما أجمع الأطباء على ضرورة سفرها إلى إحدى مدن المياه المعدنية بفرنسا لتعالج فيها، وذلك عام ١٩٢٧م وكان الملك مسافراً لبعض دول أوربا زيارة رسمية، ورفض أن يصحبها معه في هذه الزيارات، واشترط أن تبقى في أوربا محجبة، ورفض أن تكون معه على نفس الباخرة، وأمر بأن تسافر باليخت (المحروسة) ليتفادى سفرها بالبواخر العادية حتى لا تختلط بالرجال، وأمر الملك أن يكون هناك (ديدبان) طوال =

= الليل في الممشى أمام الجناح الخاص بالملكة في اليخت، وعندما بدأت الرحلة، وخيم الظلام في الليلة الأولى رأت الملكة الديدبان، فغضبت وهاجت وماجت وأمرت قبطان اليخت المحروسة بسحب الديدبان فوراً، وقال لها القبطان في احترام: « إنني أنفذ أوامر جلالة الملك شخصياً »، وقالت الملكة: « ولكن وجوده هنا يضايقني، وصوت حذائه يزعجني ويقلق نومي »، ولم يستطع القبطان أن يقول إن صوت الحذاء لا يسمع مع وجود (البساط) المفروش على الأرض، بل قال للملكة: إذا كان صوت حذاء الديدبان يزعج جلالتك فإنني سآمره أن يخلع حذاءه، وفعلاً كان الجنود الذين يتناوبون الحراسة ليلاً أمام جناح الملكة يخلعون أحذيتهم، ويقفون حفاة تنفيذاً لأمر الملك من جهة، وإرضاءً للملكة من جهة أخرى.

وحدث في تلك الأيام أن نشرت مجلة (روز اليوسف) صورة للملكة نازلي ووجهها مكشوف، فقامت قيامة الملك فؤاد، وطلب من « توفيق نسيم » باشا رئيس الديوان الملكي أن يطلب من « عبد الخالق ثروت » باشا رئيس الوزراء إغلاق مجلة روز اليوسف بتهمة (العيب في الذات الملكية) .. وحقق مدير المطبوعات مع « روز اليوسف »، فقالت: « إن الصورة منقولة عن جريدة فرنسية وزعت في مصر »، واكتفى مدير المطبوعات بتوجيه توبيخ شديد اللهجة إلى « روز اليوسف ».

وكان الملك « فؤاد » يحرص أن لا تبدو الملكة نازلي سافرة أمام رجل، حتى أنها كانت لا تستطيع أن تتنزه في حدائق القصر الملكي إلا إذا حجبت نصف وجهها، وبعدما يتحقق بوليس القصر من عدم وجود رجل في المنطقة التي ستتنزه فيها الملكة، وفي الوقت الذي ستتنزه فيه الملكة، وفي الوقت نفسه يصدر الأمر إلى جنود الحرس الملكي الذين يقفون فوق جدران القصر أن يديروا ظهورهم إلى حديقة القصر طول مدة سير الملكة في الحديقة!

وحدث أن قرر الملك (أمان الله خان) ملك أفغانستان أن يزور مصر وهو في طريقه إلى أوربا، فصحب الملكة (ثريا) زوجته، ورحب الملك فؤاد بملك أفغانستان، ثم سمع أن الملك (أمان الله) دعا نساء أفغانستان إلى نزع الحجاب اقتداء بالغازي (كمال أتاتورك) الذي ألغى الحجاب في تركيا، وجاءت البرقيات تقول إن الملكة (ثريا) سترافق الملك « سافرة » في رحلته، وعندئذ ألغى الملك فؤاد استضافته ملك أفغانستان في قصر عابدين، بحجة أن التقاليد تحول دون اشتراك الملكة ثريا في الزيارة الرسمية، وعُرف أن الملك فؤاد لا يريد أن تقيم ثريا في قصر عابدين حتى لا تُسمِّمَ أفكار الملكة نازلي، ووافق الملك (أمان الله) على أن تكون إقامة ثريا في مصر إقامة غير رسمية، فلا تشترك في الحفلات والاستقبالات التي يُدْعَى إليها، ولم يكتف الملك فؤاد بذلك، بل أبلغ الملك (أمان الله) أنه يرجو ألا تظهر زوجته سافرة أثناء إقامتها في مصر مراعاةً لتقاليدها، وخضعت ثريا لرغبة الملك، وأصدر الملك فؤاد أمره إلى وزارة الداخلية بعدم محاولة تصوير ملكة أفغانستان، وفعلاً لم تظهر صورة واحدة للملكة ثريا في الصحف المصرية طوال مدة إقامتها. =

هل رجع « قاسم أمين » عن آرائه ؟

زعم بعض الباحثين أن قاسم أمين (عدل عن رأيه في عام ١٩٠٦م، بعد أن تبين له أنه ضل الطريق، وذلك ضمن حديث له إلى صحيفة « الظاهر » التي كان يصدرها « محمد أبو شادي » المحامي، أعلن فيه رجوعه عن رأيه، كما أعلن فيه أنه كان مخطئاً في « توقيت » الدعوة إلى تحرير المرأة)[١٢٥] .

وقد استدل من ذهب إلى ذلك، بحديثه المذكور آنفاً في صحيفة « الظاهر »، وفي الاستدلال بهذا الحديث نظر، لأن عبارته لم تكن صريحة في توبته عن ضلاله بالكلية، ولكنه ادَّعى أن خطأه، كان فقط في « توقيت » الدعوة إلى تحرير المرأة، وليس في مضمون الدعوة ذاتها، وإليك نص عبارته في ذلك :

قال « قاسم أمين » : (لقد كنت أدعو المصريين قبل الآن إلى اقتفاء أثر الترك بل الإفرنج في تحرير نسائهم، وغاليت في هذا المعنى حتى دعوتهم إلى تمزيق ذلك الحجاب، وإلى إشراك النساء في كل أعمالهم ومآدبهم وولائمهم .. ولكني أدركت الآن خطر هذه الدعوة بما اختبرته من أخلاق الناس، فلقد تتبعت خطوات النساء في

= وعندما انتهت الزيارة، وصعدت ملكة أفغانستان إلى الباخرة الإيطالية التي أقلتها إلى أوربا أسرعت، ونزعت الحجاب بحركة عصبية، وقالت للصحافيين : (أظن أننا لم نعد مقيدين بأوامر الملك فؤاد هنا) اهـ من مقالات بعنوان : (من عشرة لعشرين) للصحافي مصطفى أمين ــ أخبار اليوم ٩ يناير ١٩٨٢م .

(١٢٥) (الأخوات المسلمات) ص (٢٥٢)، ولعل مما يضعف احتمال رجوعه عن مذهبه ما قالته « هدى شعراوي » في حفل تكريم ذكرى رحيل « قاسم أمين » العشرين ــ والذي حضره : صفية زغلول، وطه حسين، ولطفي السيد، وواصف غالي، وتوفيق دوس، ومصطفى عبد الرزاق : (سادتي وسيداتي : اسمحوا لي أن أبدأ كلمتي بآخر كلمة نطق بها المرحوم قاسم أمين في حفلة نادي المدارس العليا وهو يحيى الطلبة الرومانيين ليلة وفاته إذ قال : « كم أكون سعيداً في اليوم الذي أرى فيه سيداتنا يزين مجالسنا كما تزين طاقات الزهور قاعات الجلوس » هذه هي آخر جملة نطق بها المرحوم قاسم قبل أن يلبي دعوة ربه ببرهة وجيزة، وهي كما ترون تتضمن أمنية غالية لم يمهله الموت حتى يشاهد تحقيقها) اهـ من (حوء) العدد (١٢٤٩) ٣٠ أغسطس ١٩٨٠م ص (١٤ ــ ١٥) .

كثير من أحياء العاصمة والإسكندرية لأعرف درجة احترام الناس لهن، وماذا يكون شأنهم معهن إذا خرجن حاسرات، فرأيت من فساد أخلاق الرجال بكل أسف، ما حمدت الله على ما خذل من دعوتي، واستنفر الناس إلى معارضتي ..، رأيتهم ما مرت بهم امرأة أو فتاة إلا تطاولوا إليها بألسنة البذاء، ثم ما وجدت زحاماً في طريق فمرت به امرأة إلا تناولتها الأيدي والألسنة جميعاً .. إنني أرى أن الوقت ليس مناسباً للدعوة إلى تحرير المرأة بالمعنى الذي قصدته من قبل)(١٢٦) .

وقد كان نشر هذا الكلام قبل موته بعامٍ ونصف، فلعله رأى ــ بعد أن تغيرت الظروف بزوال (كرومر) وانطفاء نفوذ (نازلي فاضل) ربيبته ــ أن يتخفف من تبعه هذه الدعوة المدمرة، بل ربما كان لبعض التجارب أثرها في نفسه، فمما يُروي (أن صديقاً عزيزاً « هو المؤرخ الإسلامي رفيق العظم » زاره ذات مرة، فلما فتح له الباب قال : « جئت هذه المرأة من أجل التحدث مع زوجكَ في بعض المسائل الاجتماعية ! »، فدُهش « قاسم أمين »، كيف يطلب مقابلة زوجته، ومحادثتها ؟ فقال له صديقه : « ألست تدعو إلى ذلك ؟ إذن لماذا لا تقبل التجربة مع نفسك ؟ » فأطرق « قاسم أمين » صامتاً)(١٢٧)، (كلَّمته زوجة « قاسم » من وراء ستار، وأفهمته أن قاسماً لم يدع إلى السفور، ولا إلى الخلوة بأجنبي)(١٢٨) .

---

(١٢٦) نقلا عن كتاب (رجال اختلف فيهم الرأى) للأستاذ أنور الجندي ص(٢٩) طبع دار الأنصار .

(١٢٧) عن مجلة (الاعتصام) عدد رمضان سنة ١٣٩٩هـ.

(١٢٨) « قاسم أمين » د . « ماهر حسن فهمي » ص (١٥٩)،

= ومن الجدير بالذكر أن زوجة (قاسم أمين) كانت محجبة حجاباً كاملاً، وقد ذكرت في بعض تصريحاتها بعد وفاته :

(أنه ــ أى قاسم ــ لم يرغمها على السفور عندما كان ينادي إليه)، وتقول : (إنها ظلت ترتدي البرقع والحبرة)، وإن قاسماً (كان يكتفي بالمناداة بفكرته، ولكنه لم يطبقها في أسرته إلا على النشء الجديد، أعنى على بناته)، ثم تحاول تبرئه قاسم من وزر الفساد الذي ترتب على دعوته، فتقول : (إن بنات الجيل الحالي وشبابه قد أخطأوا فهم هذه الدعوة، وتجاوزوا مداها، فالمظهر الذي تظهر به فتيات هذا =

موت « قاسم أمين » :

(ومات « قاسم أمين » ليلة الثالث والعشرين من أبريل سنة ١٩٠٨م، فأوحى الإنكليز إلى شيعته بإقامة ما يسمى « حفل تأبين » له، فأقاموا هذا الحفل، وأشادوا فيه بدعوته إلى السفور، فقابل رجال الحزب الوطني هذه الحركة بإقامة احتفال كبير للدعوة إلى الحجاب، ولإبراز أصابع الإنكليز في فتنة السفور)[١٢٩].

من يحمل اللواء ؟

وبموت « قاسم أمين » لم تهدأ هذه الدعوة إلى (تدمير) المرأة إلا قليلاً، وكيف يهدأ للإنكليز بال والخطة لم تصل بعدُ إلى أهدافها ؟

وإن مات « قاسم أمين » فهناك على الساحة السياسية من يستنأنف الدور، ويحمل اللواء، هناك « حزب الأمة » وزعاماته المعروفة بعمالتها للإنكليز من أمثال : (أحمد فتحى زغلول)[١٣٠] عضو محكمة دنشواى، والهلباوى جلادها

= العصر ليس سفوراً، بل بهرجة فظيعة لم يكن يخطر على بال قاسم أن ينادي بها أو يدعو إليها، وإنما كان قاسم ينادي بالسفور الشرعي (!) الذي لا يزيد عن إظهار الوجه واليدين والقدمين، ولا يتجاوزه إلى إظهار العورات، وإلى اختلاط المرأة بالرجل بالشكل الحاصل الآن، وإني أعتقد أن قاسم بك لو كان حياً، لما رضى عن هذه الحال، بل لانبرى إلى محاربتها)اهـ، وانظر « قاسم أمين » لأحمد خاكى ص (١٠٦ — ١٠٧).

(١٢٩) (الحركات النسائية في الشرق) ص (١٩).

(١٣٠) أحمد فتحي زغلول شقيق سعد زغلول، اشترك في الحكم على المتهمين في حادثة دنشواي، إذ كان أحد قضاة المحكمة المخصوصة، [وهي التي أصدر بطرس « باشا » غالي وزير الحقانية بالنيابة قراراً بتشكيلها لمحاكمة المتهمين برياسته هو نفسه — أى بطرس —، وعضوية كل من (المستر) هيتر و (المستر) بوند والقائم مقام (لادلو)، وأحمد فتحي (بك) زغلول رئيس محكمة مصر الابتدائية] اهـ من (مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية) لعبد الرحمن الرافعي ص (٢٠٣)، وفيه أيضاً أن (أحمد زغلول هو الذي كتب الحكم بقلمه، ورقي بعد الحكم وكيلاً لوزارة الحقانية، وسماه مصطفى كامل قاضي دانشوى) اهـ ص (٤١٩) — وهو المقصود بقول شوقي في « وداع كرومر » :

أم من صيانتِك القضاءَ بِمصْرَ أن ... تأْتي بقاضى دنشوايَ وكيلاً ؟

وسفاحها، وهناك وكلاء الغرب المنضوون تحت لواء هذا الحزب من أمثال (لطفي السيد) الذي حمل على عاتقه الدعوة إلى خروج النساء باسم التحرير، وها هو ذا (أستاذ الجيل) أو (منشيء الوطنية المصرية) على حد تعبير « سلامة موسى » يتحدى المسلمين، ويدخل الفتيات طالباتٍ في الجامعة مختلطات بالطلاب، سافرات الوجوه ولأول مرة في تاريخ الجامعة المصرية[١٣١]، وظل (أستاذ التضليل) يروج لحركة تحرير المرأة على صفحات (الجريدة) لسان حزب الأمة[١٣٢].

---

(١٣١) وكان عضده ونصيره في تلك الخطوة (طه حسين) و (كامل مرسى) من « المرأة المصرية » لدرية شفيق ص (١٥٣، ٢٦٧)، أما تفاصيل ذلك : فقد حكاها (طه حسين) في الاحتفال بتكريم أولى خريجات الجامعة وأول طيارة مصرية في فبراير ١٩٣٢م حيث قال في كلمته : (أظن أن موقفي الآن ـــ ولست من الرجال الرسميين ـــ يسمح لي بأن أكشف لحضراتكم عن مؤامرة خطيرة جداً حدثت منذ أعوام، وكان قوامها جماعة من الجامعيين، فقد ائتمر الجامعيون، وقرروا فيما بينهم أن يخدعوا الحكومة، وأن يختلسوا منها حقاً اختلاساً لا ينبئونها به ولا يشاورونها فيه، وهو الإذن للفتيات بالتعليم العالي في الجامعة المصرية، وأؤكد لكم أيها السادة أنه لولا هذه المؤامرة التي اشترك فيها الجامعيون، وبنوع خاص أحمد لطفي السيد باشا وعلي إبراهيم باشا وهذا الذي يتحدث إليكم، لولا هذه المؤامرة التي دبرناها سراً في غرفة محكمة الإغلاق لما أتيح لنا ولا للاتحاد النسائي أن أقدم إليكم الآن محامية مصرية وأديبات مصريات، اتفق هؤلاء الثلاثة فيما بينهم أن يضعوا وزارة المعارف أمام الأمر الواقع، وكان القانون الأساسي في الجامعة يبيح دخول المصريين، وهو وإن كان لفظاً مذكراً ينطبق على المصريين والمصريات، وعلى ذلك ائتمرنا على أن تقبل الفتيات، فقبلناهن ولم نحدث أحداً بذلك، حتى إذا تم الأمر وأصبح لهن حق مكتسب في الجامعة، علمت الوزارة أن الفتيات دخلن الجامعة) اهـ ص (٢٣ ـــ ٢٤)من (حواء) العدد ١٢٥٥ / ١١ أكتوبر ١٩٨٠م.

(١٣٢) ومن المعروف أنه كان من الداعين إلى « إصلاح الخط العربي » سنة ١٨٩٩ وذلك بالدلالة بالحرف على الحركات فتكتب سعدٌ بالرفع هكذا (ساعدون)، وبالنصب (ساعدان) والجر (ساعدين)، وبفك الإدغام فتكتب محمد هكذا (موحاممادون) في الرفع و (موحاممادان) في النصب و (موحاممدين) في الجر، وهو يوافق في ذلك القاضي الإنكليزي (ولمور)، « والأب » (أنستاس) في خططهما الخبيثة للقضاء على لغة القرآن المجيد ومحو الشخصية المسلمة من الوجود.

[وقد كان (لطفي السيد) خصماً للعروبة والوحدة الإسلامية، وكان يدعو إلى قصر التعليم على أبناء الأعيان، وكان يدعو إلى اللهجة العامية على وفق ما دعا إليه المستشرقون والمبشرون مثل (مولار، =

صدور مجلة « السفور » :

ولما قامت الحرب العالمية الأولى وكانت الفرصة سانحة لإخفات صوت الإسلاميين، وتشريد دعاتهم، وكتم أنفاسهم ــ اعتقلت السلطات البريطانية رجال الحزب الوطني، وانتهز أنصار الحركة النسائية الفرصة، فأصدروا مجلتهم (السفور)

= ويلكوكس) رافعاً شعار « تمصير العربية بإحياء العامية »، وكان يقاوم التضامن العربي الإسلامي، فقد عارض مساعدة المصريين لجيرانهم في طرابلس الغرب أثناء الغزو الإيطالي عام ١٩١١، ودعا إلى التزام الحياد المطلق في هذه الحرب الإيطالية « التركية » .

ومن مواقفه الشهيرة أنه مجَّد اللورد كرومر، ووصفه بأنه (من أعظم عظماء الرجال، ويندر أن نجد في تاريخ عصرنا ندًّا له يضارعه في عظائم الأعمال)، ونشر عنه هذا الكلام في نفس اليوم الذي ألقى فيه كرومر خطاب الوداع، فسبَّ المصريين جميعاً .

وقد رسم (أستاذ الجيل) منهجاً للحياة الاجتماعية والسياسية والتربوية والاقتصادية في مصر يقوم على التبعية العامة للنفوذ الأجنبي والاحتلال البريطاني والفكر الغربي تحت اسم عبارة خادعة هي (مصر للمصريين) .

وقد أنشأ ذلك (الأستاذ) حزب الأمة الذي كان « صناعة بريطانية » بإجماع الآراء، وكان هدف هذا الحزب تقنين الاستعمار، والعمل على شرعية الاحتلال، والدعوة إلى مهادنة الغاصب، وتقبل ما يسمح به بدون مطالبته بشيء ! ..

أما موقفه من الدين فيلخصه قوله : (لست ممن يتشبثون بوجوب تعلم دين بعينه، أو قاعدة أخلاقية بعينها، ولكني أقول بأن التعليم العام يجب أن يكون له مبدأ من المبادىء يتمشى عليه المتعلم من صغره إلى كبره، هذا المبدأ هو مبدأ الخير والشر)] انتهى ملخصاً من كتاب (رجال اختلف فيهم الرأي) للأستاذ أنور الجندي ص(٤ ــ ١١)، وقال د. حسين فوزي : (والفكرة في عقيدة لطفي السيد هي الحرية، الحرية في كل صورها ومعانيها، والعقيدة هي القومية والديمقراطية والتمدين) اهـ من « أحمد لطفي السيد » ص(٢٨٧) .

وقد كان الرباط وثيقاً جداً بين (طه حسين) و (لطفي السيد)، وآية ذلك :

ــ أن أول رسالة علمية في الجامعة مُنِحَتْ لطه حسين .

ــ وحينما تحولت الجامعة الأهلية إلى حكومية اشترط لطفي السيد أن يكون طه حسين أستاذاً فيها .

ــ وحينما أُقِيل طه حسين لعدوانه على الإسلام استقال لطفي السيد من الجامعة تضامناً معه .

(انظر « لطفي السيد » للدكتور حسين فوزي ص(٢٧٠ ــ ٢٧٨) .

باسم (عبد الحميد حمدي)، وقد أخذت على عاتقها نشر الدعوة ضد الحجاب، وضد الآداب الإسلامية، وممن كتب فيها داعياً إلى السفور مصطفى عبد الرازق، وعلى عبد الرازق[١٣٣]، وطه السباعي، وصاحب « المجلة » وغيرهم[١٣٤].

وإلى قيام ثورة ١٩١٩ كانت هذه الدعوة الآثمة محصورة في أضيق الحدود، حتى إن المتظاهرات اللاتي أغراهن دعاة التحرير بالخروج في ذلك الحين كن محجباتٍ يرتدين البراقع البيضاء، ولا يخالطن الرجال[١٣٥].

---

(١٣٣) « علي عبد الرازق » صاحب كتاب (الإسلام وأصول الحكم) صدر كتابه سنة ١٣٤٤هـ (١٩٢٥م) عقب إلغاء الكماليين للخلافة الإسلامية في تركيا ليسوغ صنيعهم، زاعماً أن الخلافة نظام تعارف عليه المسلمون، وليس في أصول الشريعة الإسلامية ما يلزم به، والكتاب مليء بالتهجم الظالم والمتهور على الخلافة والخلفاء، ولم يستثن من ذلك الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، وعلى رأسهم خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر رضي الله عنه، وزعم عدو الله أن الدين لا يمنع من أن جهاد النبي صلى الله عليه وسلم كان في سبيل الملك، لا في سبيل الدين، (حاشا لرسول الله صلى الله عليه وسلم)، وأنكر أن القضاء وظيفة شرعية، ووصف حكومة الخلفاء الراشدين بأنها كانت (لا دينية) وهذه جرأة (لا دينية) من المؤلف، وقد ذهب قبل تأليفه إلى بريطانيا، وأقام فيها عامين، ولقرائن عديدة ذهب فضيلة الشيخ (محمد بخيت) رحمه الله إلى أن الكتاب ليس من تأليف « على عبد الرازق »، ورجح الدكتور « ضياء الدين الريس » بأن مؤلف الكتاب الحقيقي هو مستشرق إنجليزي يهودي الأصل وهو (مرجليوث)، ومن هنا أطلق عليه الأستاذ أنور الجندي (حاشية على عبد الرازق على بحث مرجليوث) ! وقد صدرت كتب عديدة ترد على الكتاب، وتفضح مؤامراته، وحوكم مؤلف الكتاب أمام هيئة كبار العلماء بالأزهر، فأصدرت حكمها في ٢٢ من المحرم سنة ١٣٤٤هـ الموافق ١٢ أغسطس ١٩٢٥م، وهو يقضي (بإخراج الشيخ على عبد الرازق أحد علماء الأزهر والقاضي الشرعي بمحكمة المنصورة الابتدائية الشرعية، ومؤلف كتاب « الإسلام وأصول الحكم » من زمرة العلماء، ومع أن حركة اليقظة الإسلامية واجهت الكتاب المنحول، وفندت أباطيله، إلا أن قوى التغريب ما تزال تعيد نشره وطبعه مع مقدمات ضافية يكتبها المضللون الشعوبيون ليخدعوا المسلمين بأسمائهم وألقابهم ــ انظر (الاتجاهات الوطنية) (٢/ ٨٥ ــ ٩٥) ، (رجال اختلف فيهم الرأى) ص (٦١ ــ ٧٢) .

(١٣٤) (تطور النهضة النسائية) ص(١٤) .

(١٣٥) من (خمسون عاماً على ثورة ١٩١٩) لأحمد عزت عبد الكريم، أصدرته مؤسسة الأهرام مركز الوثائق =

الطفـرة :

وقد كان ثورة (١٩) أكبر طور طفر بحركة « تحرير المرأة »، وقد تمثل ذلك في مشاركة المرأة في ثورة ١٩١٩ ، ومؤازرة « سعد زغلول » للحركة النسائية، وكانت المشاركة الفعلية للمرأة بمظاهرة يوم ٢٠ مارس سنة ١٩١٩ ، وكانت هذه المشاركة في ذلك اليوم بمثابة جواز المرور الذي تجاوزت به المرأة الحائط القديم الذي قبعت طويلاً خلفه، لوم تعد إليه أبداً، بعد أن وضعت قدمها موضع قدم الرجل، فعندما تشكل الوفد المصري من الرجال، همت المرأة فشكلت لجنة الوفد من السيدات اللاتي اجتمعن برئاسة « هدى شعراوي » في الكنيسة المرقصية الكبرى يوم (٨ يناير سنة ١٩٢٠)، ومنذ ذلك التاريخ انتقل التنظيم النسائي إلى مرحلة العمل المنظم، على أساس أنه هيئة مستقلة حرة معترف بها، لها الحق في أن تشارك في مجريات الأحداث التي تمر بها البلاد .

وظلت الصحافة في هذه المرحلة، تؤازر المرأة، خاصة التي يحررها صحافيون سفوريون ممن كانوا يؤازرونها من قبل، وممن انضم إليهم من أمثال الدكتور « محمد حسين هيكل » صاحب جريدة « السياسة »، وبعض كتاب مجلة الهلال وغيرهم، ورسمت الصحافة صورة المرأة المثالية، التي يجب أن تتمثلها المرأة المصرية، وهي نفسها صورة المرأة الأوربية في ذلك الوقت، يقول أحد الكتاب : « المرأة الأوربية عندها واجبان مقدسان : بيتها ووطنها، وبين الواجبين تخص بساعة نفسها، فتحضر حفل موسيقى، أو تدعو أصحابها لليلة راقصة، ولا تنسى أن تقف أمام المرآة لتزين حالها، فتتذكر دائماً أنها امرأة، إنها في نظري مثال المرأة الأعلى، ويحسن بالمرأة الشرقية أن

= والبحوث التاريخية لمصر المعاصرة (ص ١٩٣ ــ ١٩٧)، وقد ضُمِّنَ الكتاب صور المتظاهرات في وسط الطريق وهن يرتدين النقاب الأبيض، والجلباب الأسود، في حين وقف الرجال على جنبات الطريق ينظرون إليهن وقد مضين قدماً .

تقتبس عنها كل شيء »[١٣٦] .

وربط كتاب هذه المرحلة صراحة بين تحرير المرأة وفكرة « المصرية » ونَبْذ فكرة « الإسلامية »، يقول « محمود عزمي » ـــ وكان من أبرز كُتَّاب تلك المرحلة : (تأثرت بكتب « قاسم أمين » تأثراً عجيباً ، جعلني أمقت الحجاب مقتاً شديداً ، يرجع إلى اعتبار خاص، هو اعتباره من أصل غير مصري، ودخوله إلى العادات المصرية ، عن طريق تحكم بعض الفاتحين الأجانب ، فكان حِنْقى على أولئك الأجانب الفاتحين الإسلاميين يزيد)اهـ[١٣٧] .

جريمة الزعيم :

(صحبت « صفية زغلول » زوجها « سعد زغلول » في باريس لحضور مؤتمر الصلح سنة ١٩٢٠ لعرض القضية المصرية ، وقد مكثت صفية ترتدي الحجاب إلى أن عادت مع « سعد زغلول » إلى مصر بعد عودته من منفاه ، وعلى ظهر الباخرة التي نقلتهما إلى الإسكندرية ، وجد « سعد » البحر وقد امتلأ بألوف المخدوعين يستقبلونه بالقوارب ، وقال سعد لصفية : « ارفعي الحجاب »، وتدخل « على الشمسى »، و « واصف بطرس » ! ـــ من أعضاء الوفد ـــ وعارضا في ذلك ، فقال سعد زغلول : « المرأة خرجت إلى الثورة بالبرقع ، ومن حقها أن ترفع الحجاب اليوم »، ورفعت « صفية زغلول » الحجاب[١٣٨]، ثم وقفت إحدى صنائع

---

(١٣٦) انظر : (المؤامرة على المرأة المسلمة) ص (١٤).

(١٣٧) « الهلال » العدد الماسي ـــ ص (١٣٢).

(١٣٨) ويبدو أن الأمر استقر أخيراً على أن لا تخلع « صفية » الحجاب نزولاً على رغبة (واصف بطرس غالي) !!، فقد حكت « هدى شعراوي » في مذكراتها قصة عودتها على نفس الباخرة التي عاد عليها « سعد »، فقالت :

(وقد بدأ ـــ أي سعد ـــ يهنئنى على توفيقي في الوصول إلى رفع الحجاب ، وكيفية عمل الحجاب الشرعي (!) الذي أرتديه ، وقال : « إنه قد سُرَّ عندما رأى صورتي بهذا الزى الجديد في منفاه »، ثم =

الاستعمار تخطب في القاهرة في احتفال الشعب المخدوع بقدوم « الزعيم »، وطلب منها رفع الحجاب، وعندئذ رفعت الحاضرات الحجاب) اهـ[١٣٩].

وجاء في جريدة « الجمهورية » الصادرة في (١٩٧٨/٤/٢٠) في الذكرى السبعين لموت « قاسم أمين » تحت عنوان : « تحليل شخصية قاسم أمين » : (ولما تولى « سعد زغلول » زعامة الشعب في عام ١٩١٩ اشترط على السيدات اللواتي يحضرن لسماع خُطَبه أن يزحن النقاب عما سمح الله به من وجوههن، وكانت هذه أول مرحلة عملية للسفور)اهـ.

وفي رواية : (نفت بريطانيا « صديقها » سعد زغلول وجماعته إلى جزيرة « سيسل » فترة، ثم أعادته إلى مصر لتوليه رئاسة الوزارة، وتوقع معه معاهدة، فيكون احتلال بريطانيا لمصر شيئاً رسمياً متفقاً عليه !

هيىء الجو في الإسكندرية لاستقبال سعد، وأُعِدَّ سرادق كبير للرجال، وآخر للنساء المحجبات، وأقيمت الزينات في كل مكان، ونزل « سعد » من الباخرة، وعلى استقبال حافل وهتافات، أخذ طريقه إلى سرادق النساء ــ دون سرادق الرجال ــ فلما دخل على النساء المحجبات، استقبلته « هدى شعراوي » بحجابها ..

فمدَّ يده ــ يا ويله ــ فنزع الحجاب عن وجهها، تبعاً لخطة معينة، وهو يضحك ..

فَصَفَّقَتْ هدى ...

= طلب من السيدة حرمه أن تُقَلِّدَني، فوعدت بذلك ..

صعّدت إلى ظهر الباخرة للنزول، وإذا بصفية هانم تقابلني ببرقعها وملاءتها، فقلت لها : « أين وعدك لسعد باشا بارتداء الإزار الشرعي ؟ »، فقالت : « أنا ليس لي زوج واحد .. واصف باشا غالي استحسن ألا أغير زيي حتى لا أحدث تأثيراً سيئاً في المستقبلين »، فعجبت من ذلك، وصافحتها، ونزلت إلى اللنش الذي كان في انتظاري » اهـ، من (حواء) العدد (١٢٣٧) ٧ يونيو ١٩٨٠م.

(١٣٩) (الأخوات المسلمات) ص (٢٥٥).

وصفقت النساء لهذا الهتك المشين ... ونزعن الحجاب .

ومن ذلك اليوم أسفرت المرأة المصرية ، استجابة لـ (رجل الوطنية) سعد ، وأصَبح الحجاب نشازاً في حياة المسلمة المصرية ..

لقد فعل « سعد » بيده ما دعا إليه اليهودي القديم بلسانه ، فكلَّفه دمه(١٤٠) ، أمَّا سعد ... ؟!)(١٤١) .

ويستنكر الشيخ « مصطفى صبري » ـــ رحمه الله ـــ هذه الجريمة التاريخية البشعة قائلاً : (وكأني بعلماء الدين سكتوا عند وقوع تلك الحادثة احتراماً لسعد ، أو انتقده عليه قليل منهم من غير تصريح باسمه كما هو المعتاد عند علماء مصر في النقد ، ولكن النهي عن المنكر ليس بجهاد مع الهواء ، وإن الحق وخاطر الإسلام أكبر من سعد وألف سعد ، وإني تذكرت هنا سعداً الصحابيَّ رضي الله عنه ، وقول النبي ﷺ فيه(١٤٢) : أتعجبون من غيرة سعد ؟ والله لأنا أغير منه ، والله أغير مني »)(١٤٣)اهـ .

---

(١٤٠) لعله يشير إلى ما رواه ابن هشام عن محمد بن إسحاق (وذكر عبد الله بن جعفر بن المسور بن مخرمة ، عن أبي عون ، قال : كان من أمر بني قينقاع أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها ، فباعته بسوق بني قينقاع ، وجلست إلى صائغ بها ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها ؛ فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها فلما قامت انكشفت سوأتها ، فضحكوا بها ، فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وكان يهودياً ، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فغضبت المسلمون ، فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع) اهـ من « السيرة النبوية » لابن هشام مع « الروض الأنف » للسهيلي (١٣٧/٣) . وإسناده مرسل معلَّق ، انظر : (دفاع عن الحديث النبوي والسيرة) للشيخ ناصر الدين الألباني ص (٢٦ ـــ ٢٧) .

(١٤١) « المرأة المسلمة » للشيخ وهبي سليمان غاوجي الألبانى ص (١٨٨) .

(١٤٢) متفق عليه من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال سعد بن عُبادة رضى الله عنه : « لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح » فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فقال : « تعجبون من غيرة سعد ؟ والله لأنا أغير منه ، والله أغير منى ، ومن أجل غيرة الله حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن » الحديث « جامع الأصول ـــ في أحاديث الرسول ﷺ » بتحقيق الأرناؤوط (٤٣٢/٨) .

(١٤٣) « قولي في المرأة » للشيخ مصطفى صبري رحمه الله (ص ٧٤ ـــ ٧٥) .

« سعد زغلول »

المنفذ الفعلي لأفكار « قاسم أمين » :

(في ثورة سنة ١٩١٩ استطاع المصريون بقيادة « سعد زغلول » أن يحققوا الاستقلال عن كل من تركيا وإنجلترا، وتحقق ـــ في الوقت نفسه ـــ بتعضيد من « سعد زغلول » ومعاونته استقلال المرأة وتحررها العملي، وتحققت بذلك نبوءة « قاسم أمين » الذي كان يرى أن آراءه في المرأة لن تأخذ شكلها العملي إلا على يد « سعد زغلول »، ومن ثم فقد أهداه كتاب « المرأة الجديدة » الذي يمثل الثورة الجذرية الفعلية للمرأة المصرية.

والذي لا يعرفه الكثيرون أن « سعد زغلول » كان لا يقل تحمساً لتحرير المرأة عن شيخه، الشيخ « محمد عبده »، وصديقه « قاسم أمين »، إن لم يكن أكثر حماساً وفاعلية منهما، فهو الرجل الذي قدر له أن يقرر تاريخ مصر طوال العقد الثالث من هذا القرن.

وكان « سعد زغلول » من أبناء الأزهر الذين تخرجوا من الأزهر الشريف ودرسوا الحقوق، واحترفوا المحاماة، واتصل برجال تركيا الفتاة، الذين قضوا على الخلافة الإسلامية في تركيا، وكانت الأميرة « نازلي فاضل » تؤيد أفكارهم، فالتقت فكرياً بسعد زغلول وعهدت إليه بالإشراف على ممتلكاتها، وعن طريق منتداها بدأ نجمه يبزغ، في ظل نجم الأميرة، ونجم الشيخ « محمد عبده »، ثم سطع نجمه عندما مثل أول أدواره السياسة بوصفه صهر « مصطفى فهمي » باشا رئيس الوزراء المصري، وأحد المقربين إلى اللورد « كرومر » سنة ١٩٠٧، ثم عندما أسس حزب الأمة، الذي بارك اللورد كرومر تكوينه راجياً أن يُحِدَّ النزعة الإسلامية ـــ بقيادة « مصطفى كامل » ـــ ثم أسند اللورد لسعد زغلول نظارة المعارف، مكافأة له على خدماته، قبل

أن تتغير الاتجاهات السياسية في مصر في نهاية الحرب العالمية الأولى ، وثورة سنة ١٩١٩)[١٤٤] .

(وفي هذه الفترة التي قدر لسعد زغلول أن يقرر فيها تاريخ مصر ، قطعت مسألة تحرير المرأة شوطاً ، لم يكن ليتحقق لها بدونه ، ومِنْ ثَمَّ فقد بَزَّ دورُه الشيخ « محمد عبده » ، « وقاسم أمين » معاً ، وذلك لأن « سعد زغلول » ـــ كما يقول الشيخ « محمد رشيد رضا » ـــ في مجلة المنار « ٧١١/٢٨ ، ٧١٢ » : (دخل في أطوار التفرنج في معيشته ، وأفكاره الاجتماعية ، وغلبت نزعة « المصرية » عنده على فكر « الجامعة الإسلامية » ، ولم يعد يذهب إلى المساجد « وهو خريج الأزهر الشريف » إلا في مناسبات الاحتفالات الرسمية في عهد وزارته ، وبعض صلوات الجمعة في زمن زعامته ، وأنكر عليه أهل الدين أموراً منها عمله في تجرئة النساء على السفور المتجاوز للحد الشرعي ، حتى لقد بدا للعيان أنه لو كان الأمر بيد « سعد زغلول » ، لحول مصر إلى تركيا كمالية أخرى ، ولكن حال دون ذلك نزوع المصريين الفطري إلى التدين ، والتمسك بعرى الدين ، وخوف سعد ـــ إذا تمادى في تحدى مشاعر الناس الدينية ـــ من أن يفقد شعبيته ، واحترام البسطاء له)[١٤٥] اهـ .

(١٤٤) « تاريخ الشعوب الإسلامية » ـــ كارل بروكلمان ـــ ص(٧٢٤) ـــ ترجمة نبيه أمين فارس ـــ ومنير البعلبكي ـــ بيروت سنة (١٩٦٨م) .

(١٤٥) انظر « المؤامرة على المرأة المسلمة » ـــ د. السيد أحمد فرج / ص(٢٠ ـــ ٢١) .

« سعد زغلول » :

أول وزير مصري في ظل الاحتلال :

لقد بدأ (الزعيم) حياته السياسية صديقاً للإنكليز ، وختمها كذلك صديقاً للإنكليز[١٤٦] ، وبدأها بمصاهرة أشهر صديق للإنكليز عرفته مصر في تاريخ الاحتلال الإنكليزي من أوله إلى آخره ، وهو « مصطفى فهمي » باشا أول رئيس وزراء في مصر بعد الاحتلال ، (وقد اختار اللورد كرومر سعداً وزيراً للمعارف ، فحاول بمجرد تعيينه إحباط مشروع الجامعة المصرية ، وتصدى للجمعية العمومية حينما طالبت الحكومة في مارس ١٩٠٧ بجعل التعليم في المدارس الأميرية باللغة العربية ، وكان وقتئذ بالإنكليزية ، وكان الاحتلال هو الذي أحل اللغة الإنكليزية محل العربية في التدريس)[١٤٧] .

(وبعد تعيينه وزيراً أراد مجموعة من النساء المصريات في القاهرة أن يجتمعن به لأمر من الأمور ، فدخل عليهن ، وبهت ، إذ فوجىء بأنهن يسدلن الحجاب على وجوههن ، فرفض الدخول والاجتماع بهن إلا أن يكشفن وجوههن ، فأبين ذلك ، ولم يحصل الاجتماع)[١٤٨] .

---

(١٤٦) بل إن مما يحتاج إلى الفحص والتدقيق ما جاء في كتاب (الأخوات المسلمات) نقلاً عن مجلة (المصور) في عددها الخاص الصادر في ٢٣ ديسمبر ١٩٢٧ بعد وفاة سعد زغلول ، فقد نشرت المصور صورة الجنازة تحت عنوان : (الأمة والحكومة تشيعان الفقيد العظيم) وتحت الصورة مباشرة كتبت العبارة التالية : (وفد البنائين الأحرار ــ الماسون ــ في تشييع جنازة الزعيم الكبير ، وكان رحمه الله قطباً من أقطاب الماسونية) ومن قبل ذلك نشرت جريدة (المقطم) في عددها الصادر يوم الجمعة « ٢٦ أغسطس » في الصفحة الأولى العبارة التالية : (حداد الماسونية على فقيد البلاد الأعظم .. فقدت الماسونية المصرية ، بفقد سعد العظيم الخالد عضداً كبيراً ، وفضلاً كثيراً ، وذخراً وفيراً ، كانت تعتز بفضله .. وستقام حفلة جناز ماسونية للفقيد الأعظم يعلن موعدها فيما بعد)اهـ .

(١٤٧) (مصطفى كامل) للرافعي ص (٢٣٩ ، ٤٣١) وانظر مواقفه (الوطنية) ! المماثلة في (الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر) للدكتور « محمد محمد حسين » (٣٧٣/٢ ــ ٣٩٣) .

(١٤٨) من مقالة بقلم « فاطمة عصمت زكريا » ملحقة بكتاب (المرأة ومكانتها في الإسلام) لأحمد الحصين ص (٢٠٨) .

ومن هنا فلا تعجب إذا رأيت (مصطفى كامل) يعلق على تصرفات الوزير « سعد زغلول » قائلاً : (إن الناس قد فهموا الآن أوضح مما كانوا يفهمون من قبل لماذا اختار اللورد كرومر[١٤٩] لوزارة المعارف العمومية صهر رئيس الوزراء « مصطفى فهمي باشا » الأمين على وحيه الخادم لسياسته ... ألا إن الذين كانوا يحترمون الوزير كقاضٍ ليأسفون على حاضره كل الأسف، وليخافون على مستقبله كل الخوف، ويفضلون ماضيه كل التفضيل، ذلك لأن الوزير قائم الآن على منحدر هائل مخيف)[١٥٠]اهـ، ولنختم هذا الفصل بما كتبه « سعد زغلول » عن اللورد « كرومر »، قال : (كان يجلس معى الساعة والساعتين، ويحدثني في مسائل شتى كي أتنور منها في حياتي السياسية)، (وكان يصفه بأن صفاته ــ أي كرومر ــ قد اتفق الكل على كمالها).

ويحكي « سعد » في مذكراته وقع خبر استعفاء « كرومر » من منصبه في (١٩٠٧/٤/١١) عليه، فيقول : (أما أنا فكنت كمن تقع ضربة شديدة على رأسه، أو كمن وُخِزَ بآلة حادة، فلم يشعر بألمها لشدة هولها .. لقد امتلأت رأسي أوهاماً، وقلبي خفقاناً، وصدري ضيقاً).

وكان سعد في مقدمة الداعين إلى إقامة حفل لتوديع اللورد كرومر الذي سب في

---

(١٤٩) ذكر كرومر في تقرير سنة ١٩٠٦م (أن في مصر جماعة صغيرة العدد، آخذة في الازدياد، هي الحزب الذي يمكن أن أسميه على سبيل الاختصار بأتباع المفتي الأخير « محمد عبده »)، وذكر في خصائصهم أنهم (غير متأثرين بدعوة الجامعة الإسلامية، ويتضمن برنامجهم ــ إن كنت قد فهمته حق الفهم ــ التعاون مع الأوروبيين، لا معارضتهم في إدخال الحضارة الغربية إلى بلادهم)، ثم أشار كرومر إلى أنه (تشجيعاً لهذا الحزب ــ وعلى سبيل التجربة ــ قد اختار أحد رجاله، وهو « سعد زغلول » وزيراً للمعارف) اهـ، وانظر : « الإسلام والحضارة الغربية » للدكتور « محمد محمد حسين » ص (٧٥).

(١٥٠) (مصطفى كامل) للرافعي ص (٤٢٢).

خطاب وداعه المصريين جميعاً ولم يمدح إلا رجلاً واحداً هو « سعد زغلول » وأعلن أنه يترك مصر مستريحاً لأنه أقام فعلاً القاعدة الأساسية لاستدامة الاحتلال، وصدق، فقد ألف في ذلك العام « حزب الأمة »[١٥١]، وأصبح « لطفي السيد » حامل لواء « الجريدة »[١٥٢]، وعين « سعد زغلول » ناظراً للمعارف، وقال كرومر في تعليل هذا التعيين : (إنه يرجع أساساً إلى الرغبة في ضم رجل قادر ومصري مستنير من تلك الطائفة الخاصة من المجتمع المعنية بالإصلاح في مصر)، (كما أن سعداً من تلاميذ محمد عبده وأتباعه الذين أطلق عليهم « جيرونديى »[١٥٣] الحركة الوطنية المصرية، والذي كان برنامجهم تشجيع التعاون مع الأجانب لإدخال الحضارة الغربية إلى مصر، الأمر الذي جعل كرومر يحصر فيهم أمله الوحيد في قيام الوطنية المصرية)[١٥٤]اهـ .

---

(١٥١) تكون « حزب الأمة » — كما يقول الشيخ محمد رشيد رضا — « من أركان أصدقاء الشيخ محمد عبده، من كبار رجال الحكومة، ووجهاء القطر »اهـ من (تاريخ الإمام) (٥٩١/١) — مطبعة المنار سنة ١٩٣٥م .

قال الدكتور السيد أحمد فرج : (إن حزب الأمة أنهى علاقاته بالجذور القديمة الإسلامية، وصفى آثارها تماماً ليهيىء الجو للفكر العلماني الذي أطبق على البلاد بلا شريك — لأول مرة — وفرض أسلوب الغرب في الحكم والتربية، والتشريع والاقتصاد، يوضح ذلك بيان الحزب نفسه الذي صدر ليحذر بجلاء « الذين يتهمون هذه الحركة الجديدة، حركة حزب الأمة، بأن لها مظهراً من مظاهر التعصب الديني أى الـ « Pan Islamism » لأنهم يريدون بهذه التهمة أن يبعدوا بيننا وبين أحرار الأوروبيين، خاصة وأنهم يعلمون أن المصريين أبعد الناس عن هذه التهمة، وأبرؤهم منها » اهـ « المؤامرة على المرأة المسلمة » ص (١٧) . وانظر : (قصة حياتي) أحمد لطفي السيد ص (٤٤) .

(١٥٢) (اتضح أن أهم أسباب إصدار « الجريدة » إظهار نوايا حزب الأمة في تطليق فكرة الإسلامية نهائياً، والعمل على تغيير الأفكار والعادات الاجتماعية في مصر) اهـ من « المؤامرة على المرأة المسلمة » ص (١٧) .

(١٥٣) انظر : « الموسوعة العربية الميسرة » ص (٦٧٧) .

(١٥٤) انظر (رجال اختلف فيهم الرأى) لأنور الجندي ص (١٦ — ١٨) .

تلميذ المدرسة الاستعمارية
وبداية « تحرير المرأة »(*)

لم يكن يتخيل أحد أن « يجاهر » أحد من القائمين على دعوة« تحرير المرأة » بأن هذا « التحرير » في مفهومه يرادف « الأسر » بل ويرادف « الانحلال » بكل ما تحتمله الكلمة من معان.

ومع وضوح السلسلة التاريخية التي مرت بها حركة « تحرير المرأة »، والتي سردنا بعضاً من حلقاتها فيما تقدم، ومع إمكان الاختلاف في تحديد بدايتها على وجه الدقة، إلا أنه لم يوجد « قلم » يحترم نفسه جرؤ على الزعم بأن عام ١٨٠٠م هو عام تحرير المرأة المصرية ! وأن « الحملة الفرنسية » كانت نقطة « الانطلاق » إلى « تحرير المرأة » من كل قيد، وأول ذلك قيد الدين والخلق والحياء .. فماذا عن عام ١٨٠٠م ؟

(عام ١٨٠٠ عام هزيمة ثورة القاهرة الثانية، عام سبى جنود الاحتلال الفرنسي لنساء مصر وبناتها وغلمانها .. هو عام تحرير المرأة المصرية) لقد انفرد بهذا الكشف « لويس عوض » !

يقـول :

(أما عام ١٨٠٠م فهو عام تحرير المرأة ففي الجبرتي وصف لبدايات حركة السفور، ووصف لبدايات حركة تحرير المرأة، ووصف لما أصاب بعض نساء القاهرة من انطلاق نتيجة لمخالطة المصريين للفرنسيين، ومحاكاتهم في الزى وفي

(*) بتصرف من « ودخلت الخيل الأزهر » ص (٣٩٥ - ٤١٤) ط. أولى، (١٣٩١ هـ - ١٩٧٢ م) - الدار العلمية - بيروت.

السلوك)[١٥٥].

ويستشهد « لويس عوض » على حركة (التحرير) هذه بقول الجبرتي : (ومنها تبرج النساء وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء، وهو أنه لما حضر الفرنسيس إلى مصر، ومع البعض منهم نساؤهم، كانوا يمشون في الشوارع مع نسائهم، وهن حاسرات الوجوه، لابسات الفستانات والمناديل الحرير الملونة ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميرى، والمزركشات المصبوغة، ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقاً عنيفاً مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة، فمالت إليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش، فتداخلن معهم لخضوعهم للنساء وبذل الأموال لهن، وكان ذلك التداخل أولاً مع بعض احتشام وخشية عار، ومبالغة في إخفائه، فلما وقعت الفتنة الأخيرة بمصر، وحاربت الفرنسيس بولاق، وفتكوا في أهلها، وغنموا أموالها، وأخذوا ما استحسنوه من النساء والبنات، وَصِرْنَ مأسوراتٍ عندهم، فزيوهن بزي نسائهم، وأجروهن على طريقتهن في كامل الأحوال، فخلع أكثرهن نقاب الحياء بالكلية، وتداخل مع أولئك المأسورات غيرهن من النساء الفواجر، ولما حل بأهل البلد من الذل والهوان وسلب الأموال، واجتماع الخيرات في حوز الفرنسيين ومن والاهم، وشدة رغبتهم في النساء، وخضوعهم لهن، وموافقة مرادهن، وعدم مخالفة هواهن، ولو شتمته أو ضربته بتاسومتها[١٥٦]، فطرحن الحشمة والوقار والمبالاة والاعتبار، واستملن نظراءهن، واختلسن عقولهن لميل النفوس إلى الشهوات، وخصوصاً عقول القاصرات.

---

(١٥٥) « تاريخ الفكر » للويس عوض « ج١ »

(١٥٦) أي حذاؤها.

وخطب الكثير منهم بنات الأعيان ، وتزوجوهن رغبة في سلطانهم ونوالهم ، فيظهر حالة العقد الإسلام ، وينطق بالشهادتين لأنه ليس له عقيدة يخشى فسادها) .

(ومنها أنه أوفى النيل أذرعه ، ودخل الماء إلى الخليج ، وجرت فيه السفن ، وقع عند ذلك من تبرج النساء واختلاطهن بالفرنسيين ومصاحبتهن لهم في المراكب ، والرقص والغناء والشرب في النهار والليل في الفوانيس والشموع الموقدة ، وعليهن الملابس الفاخرة والحلى والجواهر المرصعة ، وبصحبتهم آلات الطرب ، وملاحو السفن يكثرون من الهزل والمجون ، ويتجاوبون برفع الصوت في تحريك المجاديف بسخف موضوعاتهم وكثائف مطبوعاتهم ، وخصوصاً إذا دبت الحشيشة في رؤوسهم ، وتحكمت في عقولهم ، فيصرخون ، ويطبلون ، ويرقصون ، ويزمرون ، ويتجاوبون بمحاكاة ألفاظ الفرنساوية في غنائهم وتقليد كلامهم شيء كثير) .

(وأما الجواري السود فإنهن لما علمن رغبة القوم في مطلق الأنثى ، ذهبن إليهم أفواجاً فرادى وأزواجاً ، فنططن الحيطان ، وتسلقن إليهم من الطيقان ، ودلوهم على مخبآت أسيادهن وخبايا أموالهم ومتاعهم وغير ذلك) اهـ .

هكذا يفهم (لويس عوض) من العبارات السابقة للجبرتي أنه كانت هناك (ثورة نساء) أو (ثورة حريم) في مصر « أو على الأقل في القاهرة عام ١٨٠٠ » .

ومع أن الجبرتي لم يترك فرصة لسوء الفهم هذا ، فإن تلميذ المدرسة الاستعمارية يصر على أنها كانت ظاهرة عامة نابعة عن « ثورة تحررية » ! ، وليست حالة انهيار تحدث في جميع المجتمعات التي تتعرض للاحتلال والنهب والسلب والتجويع ، وأسْر بنات الأسَر ، كالجواري ، ووضعهن في معسكرات الجند « مأسورات » .

مؤرخ المدرسة الاستعمارية يجعل من انحطاط المرأة إلى حد التكسب

(بالفاحشة) ثورة نساء، وبداية تحرر المرأة !

وهو بذلك يعكس احتقاراً عميقاً للمرأة، كما يعكس مفهوماً وقحاً لمعنى تحرر المرأة، ولكنه لا يكتفي بذلك بل يصر على أن يجعل هذا التحرر بعلم رجال مصر ورضاهم .

والجبرتي دقيق وواضح حين يبين أن الفريق الأول أو (الرائدات) هن من النساء الأسافل والفواحش، أما الفريق الثاني من الحرائر فهو يعتذر عنهن بالأسر، ولكن « لويس عوض » يأبى إلا أن يلوى عنق النص، ويدعى أن الجبرتي (يتحدث عن الحرائر من ربات البيوت وبناتها .. عن سيدات المجتمع، وهؤلاء ما كان يمكن أن يخالطن الفرنسيات والفرنسيين إلا برضاء الأولياء عليهن)[١٥٧] اهـ.

وهكذا يزعم تليمذ المدرسة الاستعمارية أن المجتمع المصري (المتحرر) تحولت نساؤه إلى بغايا، وتحول رجاله إلى قوم يرضون بذلك !

ثم تأمل افتراءه ــ عامله الله بعدله ــ حينما يدعى أن طبقات النساء اللواتي حاكين المتفرنسات والعادات الفرنسية فطرحن الحشمة والوقار والمبالاة والاعتبار قد اتسعت (بتأثير سبايا الفرنسيين المتحررات من بنات بولاق) اهـ .

نعم في منطق « لويس عوض » وأمثاله لا تتعارض كلمة (سبايا) مع كلمة (متحررات) لأن الحرية التي هي مثار الجدل هنا هي (الحرية الشهوانية) بمعناها السوقي المبتذل، ومن ثم يمكن أن تكون المرأة جارية سبية، وفي نفس الوقت « متحررة »، بل وطليعة ثورة تحررية، لأنها تتبرج في ثيابها وتخرج سافرة الوجه متأبطة ذراع (محررها) و (مالكها) في نفس الوقت، ومن ثم يمكن أيضاً ــ في منطق الرجل ــ الفصل بين (حرية المرأة المملوكة) وبين (حرية الوطن الأسير) .

---

(١٥٧) « تاريخ الفكر » لويس عوض (ج١) .

إن ظاهرة (الانحلال) ظاهرة عامة في المستعمرات ، ولا علاقة لها بمركز المرأة ، إذ إنها ظاهرة تنشأ عند قشرة المجتمع ، عند نقطة احتكاكه بالمحتل الأجنبي ، وهي حينئذ لن تتحول إلى ثورة نسائية ولا إلى حركة تحرير للمرأة ، لأن المرأة لا تتحرر على يد جيش احتلال يهتك الأعراض ويدنس الحرمات .

الاســتعمار الأوربي
حملة صليبية جديدة

﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾
سورة البقرة آية (٢١٧)

كان الجندي الإيطالي يرتدي لباس الحرب، قادماً لاستعمار بلاد الإسلام، وهو ينشد بأعلى صوته :

(يا أمـــاه ...
أتمي صلاتك .... ولا تبكي
بل اضحكي، وتأملي ... ألا تعلمين أن إيطاليا تدعوني
وأنا ذاهب إلى طرابلس
فرحاً مسروراً ...
لأبذل دمي في سبيل سحق الأمة الملعونة ...
ولأحارب الديانة الإسلامية ...
سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن ...)[١٥٨].

(والمتتبع لتاريخ العلاقات ما بين الغرب وشعوب الإسلام، يلاحظ حقداً مريراً يملأ صدر الغرب حتى درجة الجنون، يصاحب هذا الحقد خوف رهيب من الإسلام

(١٥٨) (قادة الغرب يقولون) نقلا عن « القومية والغزو الفكري » ص (٢٠٨) وهذه الأنشودة المشهورة تسمى (أغنية الفاشيست) كانت جيوش الطليان الجرارة تترنم بها وهي تسير مدججة بالسلاح في طرقات طرابلس وبرقة بصوت واحد (انظر : الاتجاهات الوطنية ٢ / ١٥٧).

إلى أبعد نقطة في النفسية الأوربية.

هذا الحقد، وذلك الخوف، لا شأن لنا بهما إذا كانا مجرد إحساس نفسي شخصي، أما إذا كانا من أهم العوامل التي تبلور مواقف الحضارة الغربية من الشعوب الإسلامية، سياسياً، واقتصادياً، وحتى هذه الساعة، فإن موقفنا يتغير بشكل حاسم.

سوف تشهد لنا أقوال قادتهم أن للغرب، والحضارة الغربية بكل فروعها القومية، وألوانها السياسية موقفاً تجاه الإسلام لا يتغير، إنها تحاول تدمير الإسلام، وإنهاء وجود شعوبه دون رحمة.

حاولوا تدمير الإسلام في الحروب الصليبية[١٥٩]، ففشلت جيوشهم التي هاجمت بلاد الإسلام بالملايين، فعادوا يخططون من جديد لينهضوا .. ثم ليعودوا إلينا بجيوش جديدة، وفكر جديد، وهدفهم تدمير الإسلام من جديد)[١٦٠].

ومهما حاولت هذه الحملات الاستتار تحت راية « نشر الحضارة والتقدم » في البلاد المستعمرة، فإن الحقيقة التي لا تخفى على كل ذى لب أن الغرب بنى، ولايزال يبنى علاقاته معنا على أساس أن الحروب الصليبية بيننا وبينه لا تزال مستمرة، وهاكم البراهين على ذلك :

• فسياسة أمريكا معنا تخطط على هذا الأساس :

قال (أيوجين روستو) رئيس قسم التخطيط في وزارة الخارجية الأمريكية ومساعد وزير الخارجية الأمريكية، ومستشار الرئيس (جونسون) لشئون الشرق الأوسط حتى عام ١٩٦٧ : (يجب أن ندرك أن الخلافات القائمة بيننا وبين الشعوب العربية ليست

---

(١٥٩) (ويوم دخلوا بيت المقدس ذبحوا فيه سبعين ألفاً من المسلمين حتى غاصت الخيل إلى صدورها في دماء المسلمين)اهـ من (حاضر العالم الإسلامي) لستودارد ص (٢٠٨).

(١٦٠) (قادة الغرب يقولون) للأستاذ جلال العالم ص (٦ ــ ٧) طبعة المختار الإسلامي.

خلافات بين دول أو شعوب، بل هي خلافات بين الحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية، لقد كان الصراع محتدماً ما بين المسيحية والإسلام منذ القرون الوسطى، وهو مستمر حتى هذه اللحظة بصور مختلفة، ومنذ قرن ونصف خضع الإسلام لسيطرة الغرب، وخضع التراث الإسلامي للتراث المسيحي.

إن الظروف التاريخية تؤكد أن أمريكا إنما هي جزء مكمل للعالم الغربي، فلسفته، وعقيدته، ونظامه، وذلك يجعلها تقف معادية للعالم الشرقي الإسلامي، بفلسفته وعقيدته المتمثلة بالدين الإسلامي، ولا تستطيع أمريكا إلا أن تقف هذا الموقف في الصف المعادي للإسلام وإلى جانب العالم الغربي والدولة الصِّهْيَوْنِيَّة، لأنها إن فعلت عكس ذلك فإنها تتنكر للغتها وفلسفتها وثقافتها ومؤسساتها)[١٦١] اهـ .

وبالأمس (وقف مندوب أمريكا في هيئة الأمم قائلاً : إن الصراع الحقيقي في الشرق ليس بين العرب واليهود، إنما الصراع الحقيقي هو ما بين حضارة الإسلام، وحضارة الغرب، فإذا استطعنا أن نزيح حضارة الإسلام عن ميدان الصراع هان علينا تصفية القضية، وسهل علينا الجمع ما بين العرب واليهود)[١٦٢] .

والحرب الصليبية الثامنة قادها « أللنبى » :

قال « باترسون سمث » في كتابه « حياة المسيح الشعبية » : (باءت الحروب الصليبية بالفشل، لكن حادثاً خطيراً وقع بعد ذلك، حينما بعثت إنكلترا بحملتها الصليبية الثامنة، ففازت هذه المرة، إن حملة « أللنبى » على القدس أثناء الحرب العالمية الأولى هي الحملة الصليبية الثامنة، والأخيرة)[١٦٣] .

---

(١٦١) المصدر السابق ص (٢٥ ـــ ٢٦) نقلاً عن (معركة المصير) ص (٨٧ ـــ ٩٤) .

(١٦٢) « محاضرات الجامعة الإسلامية » موسم عام (١٣٩٥ ـــ ١٣٩٦هـ) هامش (١٢٤) .

(١٦٣) عن مجلة الطليعة القاهرية ـــ مقال وليم سليمان عدد ديسمبر ١٩٦٦ ـــ ص (٨٤) .

ولذلك نشرت الصحف البريطانية صور « أللنبى »، تحتها عبارته المشهورة التي قالها عندما فتح القدس : (اليوم انتهت الحروب الصليبية)، ونشرت هذه الصحف خبراً آخر يبين أن هذا الموقف ليس موقف « أللنبى » وحده بل هو موقف السياسة الإنكليزية كلها، قالت الصحف :

(هنأ « لويد جورج » وزير الخارجية البريطانية الجنرال « أللنبى » في البرلمان البريطاني، لإحرازه النصر في آخر حملة من الحروب الصليبية، التي سماها « لويد جورج » : الحرب الصليبية الثامنة).

وقال « ألان مورهيد » مؤلف كتابي : « النيل الأبيض » و « النيل الأزرق » : (إن احتلال الإنكليز لمصر سنة ١٨٨١ كان لمواجهة مؤامرة إسلامية خطيرة، وتيار محمدي متعصب)[١٦٤].

والفرنسيون أيضاً صليبيون :

فالجنرال (غورو) عندما تغلب على جيش (ميسلون) خارج دمشق توجه فوراً إلى قبر (صلاح الدين الأيوبي) عند الجامع الأموي، وركله بقدمه قائلاً : « ها قد عندنا يا صلاح الدين »[١٦٥]، وقد صرح القائد الفرنسي (بيير كيلر) بهذه الدوافع الصليبية حيث قال في كتابه (القضية العربية في نظر الغرب)[١٦٦] : (إن مصالح فرنسا في الشرق الأوسط هي قبل كل شيء مصالح روحية، وتعود هذه العلاقات إلى عهد الصليبيين، حيث وقعت معاهدات لحفظ الأماكن المقدسة، وجددت هذه المعاهدات على مر القرون، وتحملت فيها فرنسا مهمة حماية نصارى الشرق) اهـ . ويؤكد صيلبية الفرنسيين ما قاله (بيدو) وزير خارجية فرنسا عندما زاره بعض

---

(١٦٤) « محاضرات الجامعة الإسلامية » عام (١٣٩٥ ــ ١٣٩٦هـ) ص (٣١)

(١٦٥) « قادة الغرب يقولون » نقلاً عن (القومية والغزو الفكري) ص (٨٤).

(١٦٦) ص (١١٩) عن (الاتجاهات الوطنية) (٢ / ٢٠).

البرلمانيين الفرنسيين ، وطلبوا منه وضع حد للمعركة الدائرة في « مراكش » فأجابهم : « إنها معركة بين الهلال والصليب »[١٦٧] .

وفي ذكرى مرور مائة سنة على استعمار الجزائر قال الحاكم الفرنسي في الجزائر : (إننا لن ننتصر على الجزائريين ما داموا يقرؤون القرآن ، ويتكلمون العربية ، فيجب أن نزيل القرآن العربي من جودهم ، ونقتلع اللسان العربي من ألسنتهم)[١٦٨] .

- وهذا هو الكاتب الفرنسي « فرنسيس جانسون » يعترف بـ (أن الاحتلال الفرنسي للجزائر كان منذ البدء يحمل طابع الحروب الصليبية : « التبشير والاستعمار »)[١٦٩] .

- وبعد سقوط القدس عام (١٩٦٧) .

قال (راندولف تشرشل) : « لقد كان إخراج القدس من سيطرة الإسلام حلم المسيحيين واليهود على السواء ، إن سرور المسيحيين لا يقل عن سرور اليهود ، إن القدس قد خرجت من أيدي المسلمين ، وقد أصدر الكنيست اليهودي ثلاثة قرارات بضمها إلى القدس اليهودية ، ولن تعود إلى المسلمين في أية مفاوضات مقبلة ما بين المسلمين واليهود »[١٧٠] .

وعندما دخلت قوات إسرائيل القدس عام (١٩٦٧م) تجمهر الجنود حول حائط المبكى ، وأخذوا يهتفون مع « موشى ديان » :

« هذا يوم بيوم خيبر . . يا لثارات خيبر » .

- وخرج أعوان إسرائيل بمظاهرات قبل حرب (١٩٦٧) تحمل لافتات في باريس ،

---

(١٦٧) « قادة الغرب يقولون » ص (٢٨) نقلاً عن (القومية والغزو الفكري) ص (٨٤) .

(١٦٨) السابق ص (٣٣) نقلاً عن (المنار) عدد (١٩٦٢/١١/٩م) .

(١٦٩) « محاضرات الجامعة الإسلامية » (١٣٩٥ ـ ١٣٩٦هـ) ص (١٣١) .

(١٧٠) « قادة الغرب يقولون » عن (حرب الأيام الستة) لراندولف تشرشل ص (١٣٩) من الترجمة العربية .

سار تحت هذه اللافتات اليهودي الوجودي (جان بول سارتر)، وقد كتب عليها، وعلى جميع صناديق التبرعات لإسرائيل جملة واحدة من كلمتين، هما : « قاتلوا المسلمين » .

فالتهب الحماس الصليبي الغربي، وتبرع الفرنسيون بألف مليون فرنك خلال أربعة أيام فقط، كما طبعت إسرائيل بطاقات معايدة كتبت عليها : « هزيمة الهلال »، بيعت بالملايين .. لتقوية الصهاينة الذين يواصلون رسالة الصليبية الأوربية في المنطقة وهي : محاربة الإسلام وتدمير المسلمين[١٧١] .

وهذا « لورنس براون » يقول : (إن الإسلام هو الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوربي)[١٧٢] .

وهذا « جلادستون » رئيس وزراء إنكلترا[١٧٣] وقد وقف في أواخر القرن الماضي في مجلس العموم البريطاني وقد أمسك بيمينه القرآن المجيد، وصاح في أعضاء البرلمان قائلاً : (إن العقبة الكئود أمام استقرارنا بمستعمراتنا في بلاد المسلمين هي شيئان، ولابد من القضاء عليهما مهما كلفنا الأمر : أولهما هذا الكتاب، وسكت قليلاً بينما أشار بيده اليسرى نحو الشرق، وقال : (وهذه الكعبة)[١٧٤]، وقال أيضاً : (مادام هذا القرآن موجوداً في أيدي المسلمين فلن تستطيع أوربا السيطرة على الشرق، ولا أن تكون هي نفسها في أمان)[١٧٥] .

---

(١٧١) السابق ص (٣٠ — ٣١) عن (طريق المسلمين إلى الثورة الصناعية ص ٢٠ — ٢١).

(١٧٢) (التبشير والاستعمار) ص (١٨٤) طبعة المكتبة العصرية بيروت ١٩٥٧م .

(١٧٣) كان (مصطفى كامل) قد راسل غلادستون هذا من باريس يسأله رأيه في مسألة مصر والاحتلال، فأجابه (غلادستون) جواباً جاء في جملته : (إننا يجب أن نترك مصر بعد أن نتم فيها بكل شرف — وفي فائدة مصر نفسها — العمل الذي من أجله دخلناها) انتهى من (بناة النهضة العربية) ص (٥٨).

(١٧٤) (الحركات النسائية في الشرق) ص (٧).

(١٧٥) (الإسلام على مفترق الطرق) ص (٣٩).

وهو القائل أيضاً : (لن تستقيم حالة الشرق ما لم يرفع الحجاب عن وجه المرأة، ويغطي به القرآن)[١٧٦] .

وهذا « كرومر » يقول : (جئت لأمحو ثلاثاً : القرآن، والكعبة، والأزهر)[١٧٧] .

وهذا القسيس (زويمر) يبشر المؤتمرين في « مؤتمر القاهرة التبشيري » (١٩٠٦م) الذي ناقش خطة تنصير العالم الإسلامي، ويوصيهم بجملة وصايا كان آخرها : (أن لا يقنطوا إذ من المحقق أن المسلمين قد نما في قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الأوربيين، وإلى تحرير نسائهم)[١٧٨] .

وهذا (جان بول رو) يقول في كتابه (الإسلام في الغرب)[١٧٩] : (إن التأثير الغربي الذي يظهر في كل المجالات، ويقلب رأساً على عقب المجتمع الإسلامي، لا يبدو في جلاء أفضل مما يبدو في تحرير المرأة) اهـ .

وفي تصريح لـ « بن غوريون » في الكنيست قال : (اصبروا فلن يكون هناك سلام لإسرائيل مادام العرب تحت قيادة الرجعيين، إن الشرط الأساسي للسلام، هو أن يقوم في البلدان العربية حكومات ديمقراطية تقدمية متحررة من « التقاليد » الإسلامية)[١٨٠] .

وبالأمس القريب نشرت مجلة (الأمة) أن رئيس أمريكا (ريجان) وجه إليه أحد الصحافيين سؤالاً نصه : (متى تنتهي مهزلة ما يحدث في بيروت والدماء تنزف ؟)

---

(١٧٦) (المرأة ومكانتها للحصين) ص (١٢) .

(١٧٧) « الخنجر المسموم » لأنور الجندي ص (٢٩) .

(١٧٨) « أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي » للدكتور على جريشة، ومحمد شريف الزيبق ص (٣٤) .

(١٧٩) انظر ص (١٧٨ ــ ١٨٩) والكتاب ترجمة : نجدة هاجر وزميله، طبع في مصر ١٩٦٠م .

(١٨٠) « محاضرات الجامعة الإسلامية » ص (١٣١) عام (١٣٩٥ ــ ١٣٩٦هـ) .

فأجاب رئيس أمريكا في غرور واضح : (إننا لا نزال صليبيين ! ولابد من إنهاء المناوشات بين المسلمين واليهود، وحماية أتباع المسيح في لبنان من المسلمين الغرباء)[١٨١] .

[بل هذه قلعة (الشقيف) القائمة على تل في جنوب لبنان ، ويسميها الأوربيون قلعة (بوفور) نسبة إلى القائد الذي أقامها أيام الحروب الصليبية منذ قرون ، وقد كانت محل قصف دائم من إسرائيل طيلة سنوات ، وفي اكتساحها للجنوب ، لم تتمكن من إخراج المقاومة منها إلا بعد أن دمرتها تماماً ، واستدعى يومها الجنرال « إيتان » قائد الجيش الإسرائيلي « مناحم بيجن » إلى أطلال القلعة ليقدم له القلعة هدية ، وجاء « بيجن » ليرفع عليها العلم الإسرائيلي قائلاً : (ها قد عدنا) ناسباً بذلك غزوه إلى الغزوات الأوربية التي أقامت ممالكها في تلك المنطقة قروناً قبل أن يستردها العرب ، ومستخدماً عبارة الجنرال (غورو) القائد الفرنسي حين احتل دمشق سنة ١٩٢٠ ، ووقف أمام قبر « صلاح الدين الأيوبي » ، وقال : (ها قد عدنا يا صلاح الدين)][١٨٢] .

ومن هنـا :

لم يكن عفواً أن يبدأ المبشرون الصليبيون بمصر قلعة الإسلام الصامدة ، ومركز ثقله ، وموطن الأزهر .

ولم يكن عفواً أن يكون قادة الغزو الصليبي الجديد لمصر من القساوسة المعروفين بكيدهم للإسلام والمسلمين أمثال (دنلوب) كاهن السياسة التعليمية الفاسدة التي زرعها في مصر لقطع صلة الأجيال بالإسلام ، و (كرومر) الحاكم البريطاني الذي أذل

---

(١٨١) « الأمة » العدد (٣١) السنة الثالثة .

(١٨٢) (يوميات) الأهرام (١٩٨٢/٨/١٢م) ص (١٨) .

المصريين لمدة ربع قرن من الزمان، والذي حرص على صياغة جيل من المثقفين ثقافة أوربية يقبل التعاون مع الاستعمار، ويخلفه في حمل راية التفرنج بعد رحيل جيوشه حتى يضمن قهر الإسلام، ويأمن بعث المسلمين من جديد بعد رحيله، وكلا الرجلين (دنلوب) و (كرومر) قد تخرجا من أكبر المدارس اللاهوتية في أوربا، ولم يكن من المستغرب أيضاً أن ينشط لدعوة الحرية عامة، و (تحرير المرأة) خاصة النصارى، والشاميون المقيمون في مصر(١٨٣)، فهؤلاء كانوا يعملون لنصرة أبناء دينهم أمثال (كرومر وزويمر ودنلوب وغورو وأللنبى)، (وتصورهم الديني غارق في التثليث والعشاء الرباني، وصكوك الغفران .. لكن من المؤسف أن يسير في هذا الخط المدمر أناس من أبناء المسلمين، أضلهم الشيطان على علم، وعميت أبصارهم عن الحقيقة، فكانوا خداماً لأسيادهم وأولياء نعمتهم من الفرنج)(١٨٤).

وكعناصر أى معركة : كانت (القيادة) صليبية، و (القاعدة) أرض وطننا المسلم مصر، و (الأسلحة) متنوعة مادية ونفسية (والجنود) عسكريين ومفكرين ومبشرين و (الضحية) بسطاء المسلمين ومستضعفيهم (والعملاء) الهواة منهم والمحترفون، الحكام والقادة الفكريون يمارسون بأيديهم إبادة مقومات القوة في أمتنا ليسهلوا على العدو الخبيث المتربص التهامها .. وما أفظعها من مهمة يمارسها العملاء حين يدمرون أممهم، ثم يدفعونها في فم الغول الاستعماري البشع ليلتهمها .. لقمة سائغة !

---

(١٨٣) أمثال : مرقص فهمي، وميخائيل عبد السيد، وجرجى زيدان، ولويس عوض، وسلامة موسى، وفرح أنطون، وشبلي الشميل، وقسطنطين رزق، وميشيل عفلق، وجورج حبش، وأنطون سعادة، وشاعر المجون والعربدة نزار قباني وغيرهم انظر : (المرأة بين دعاة الإسلام وأدعياء التحرر) للدكتور « عمر الأشقر » ص (١٤)، و (المرأة ومكانتها) للحصين ص (٢٠٨)، و (الاتجاهات الوطنية) (١ / ٢٠٣) وما بعدها.

(١٨٤) (المرأة ومكانتها في الإسلام) للحصين ص (٢١٩) بتصرف.

لقد استطاع أعداء الإسلام في تلك الحقبة أن يغرسوا في نفوس الكثير من المنهزمين أنهم ما أتوا إلا لتعمير بلادنا ونشر الحضارة والثقافة، وجهل هؤلاء المنهزمون أن هؤلاء الأعداء الموتورين قد توارثوا الأحقاد على الإسلام عبر القرون، وأنهم لا يألون جهداً حتى يردونا عن ديننا إن استطاعوا.

كأن أنسالهم من بعدهم حلفوا أن يبعثوا الحقد نيراناً وينتقموا
هذى حضارتهم والشر يملؤها ماتت على صرحها الأخلاق والشيمُ

والآن .. وبعد أن انكشفت لنا الحقائق جلية عن نوايا أعدائنا بنا وخططهم لتدميرنا، وعن حقيقة هؤلاء الذين قامت على أكتافهم دعوة (تحرير المرأة)، وسنكشف فيما بعد إن شاء الله عن حقيقة هؤلاء اللاتي طفن بأوربة، وحججن إلى حضارتها، وشددن الرحال إلى مؤتمراتها، و « مؤامراتها »، ثم عدن نائبات عن (أسيادهن) في مهمة (تدمير المرأة المسلمة) وبذلن كل فروض الطاعة والولاء الصريح لأعداء الإسلام، وبخلن في الوقت نفسه بإظهار أى صورة من صور الولاء الحقيقي لله ولرسوله وللمؤمنين، وجهر بعضهن بعد ذلك بالطعن في الدين، والتبرى من شريعة سيد المرسلين ﷺ أفلا يحق لنا بعد هذا كله أن نتساءل :

(ما سر العلاقة الودية الوثيقة التي تربط بين دعاة تحرير المرأة وبين القوى الاستعمارية والمعادية للإسلام وعلمائه ودعاته وأهله في كل مكان من العالم حولنا ؟ إنه بالرغم من افتراض حسن النية أو الجهل عند من كان يظهر الإسلام من دعاة (تحرير المرأة) لكن هذا الافتراض لم يمنع بعض المحللين والباحثين حق الاجتهاد والبحث عن علاقة ما محتملة، سرية أو علنية بين مخططات البهائية والصهيونية والماسونية ومسيرتها السرطانية الدؤوبة التي لا نشعر بها إلا بعد ظهور الأورام، وتفشى الموت في الدم واللحم والعظم ــ وبين قيادات ودعاة السفور على مساحة ديار المسلمين الواسعة، و « من أوقع نفسه مواقع التهمة، فلا يلومن من أساء الظن به »).

فلنستصحب هذه المعاني الآن ونحن نجول بين أعلام نسائية بارزة كان لها دور ما في « معركة الحجاب والسفور » ، ولنتأمل جيداً دورهن « كتلميذات للاستعمار » ، ما منهن واحدة إلا ورحلت إلى « هناك » لِتُلَقَّنَ أصولَ الدعوة المدمرة ، ثم عادت إلى « هنا » لتتبوأ مراكز التوجيه .. متجردة من الولاء للإسلام والاعتزاز بأحكامه ، ومخلصة في عبادتها لأوربة ، بل فخورة باستعباد أوربة لها ، رافضة بلسان حالها وسلوكها ولحن قولها أن تجعل الإسلام منظاراً على عينها ترى الأشياء من خلاله ، وتُحَكِّمه فيما هي عليه من عقيدة ومنهاج .